منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل

محمد ﷺ

فضيلة الشيخ
الدكتور ربيع بن هادي المدخلي
رئيس قسم السنة بالدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الدار السلفية

منهاج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل

فضيلة الشيخ
الدكتور ربيع بن هادي المدخلي
رئيس قسم السنة بالدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

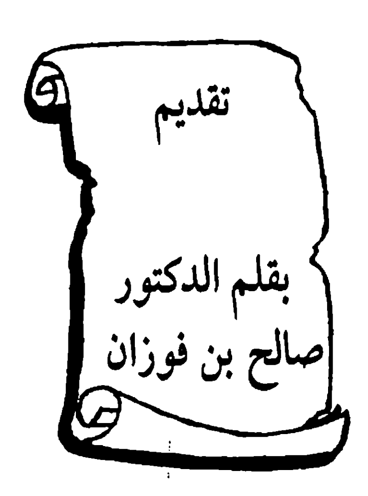
الدار السلفية

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الناشر
الدار السلفية

حولي - شارع تونس
مقابل محافظة حولي
تلفون ٢٦١٧٤٢٠
ص . ب ٢٠٨٥٧ الصفاة
الرمز البريدي ١٣٠٦٩
الكويت





الحمد لله رب العالمين ، أمرنا باتباع رسوله، والدعوة إلى سبيله، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد فإن الدعوة إلى الله هي سبيل الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه ـ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بل الدعوة الى الله هي مهمة الرسل وأتباعهم جميعاً ، لإخراج الناس من الظلمات إلى لنور ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الشرك إلى التوحيد ، ومن النار إلى الجنة وهي ترتكز على دعائم وتقوم على أسس لا بد منها ـ متى اختل واحدٌ منها لم تكن دعوة صحيحة ولم تثمر الثمرة المطلوبة ، مهما بُذل فيها من جهود وأضيع فيها من وقت ـ كما هو المشاهد والواقع في كثير من الدعوات المعاصرة التي لم تُؤسَّس على تلك الدعائم ولم تقم على تلك الأسس

ـ وهذه الدعائم التي تقوم عليها الدعوة الصحيحة هي كما دل عليه الكتاب والسنة تتلخص فيما يلي

١ ـ العلم بما يدعو إليه ، فالجاهل لا يصلح أن يكون داعية ـ قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ والبصيرة هي العلم ، ولأن الداعية لا

بد أن يواجه علماء ضلال يوجهون إليه شبهات ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق قال الله تعالى ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَن ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ « إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب » فإذا لم يكن الداعية مسلحاً بالعلم الذي يواجه به كل شبهة ويجادل به كل خصم فإنه سينهزم في أول لقاء وسيقف في أول الطريق

٢ ـ العمل بما يدعو إليه حتى يكون قدوةً حسنة تصدق أفعاله أقواله ولا يكون للمبطلين عليه حجة ـ قال الله تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام أنه قال لقومه ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَآ أَنْهَاكُم عَنْهُ إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإِصْلاحَ ما اسْتَطَعْتُ ﴾ وقال تعالى لنبيه محمد صلىٰ الله عليه وسلم ﴿ قُل إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ العَالَمِين * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ ﴾ قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلىٰ اللّهِ وَعَمِلَ صالِحَاً ﴾

٣ ـ الإخلاص بأن تكون الدعوة لوجه الله لا يقصد بها رياء ولا سمعة ولا ترفعاً ورئاسةً ولا طمعاً من مطامع الدنيا ـ لأنها إذا دخلها شيء من تلك المقاصد لم تكن دعوة لله وإنما هي دعوة للنفس أو للطمع المقصود ـ كما أخبر الله عن أنبيائه أنهم يقولون لأممهم ﴿ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أجراً ﴾ ، ﴿ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً ﴾

٤ ـ البداءة بالأهم فالأهم بأن يدعو أولاً إلى إصلاح العقيدة بالأمر بإخلاص العبادة لله والنهي عن الشرك ثم الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفعل الواجبات وترك المحرمات كما هي طريقة الرسل جميعاً كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اعْبُدوا اللّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وقال تعالى ﴿ ومآ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ أَنَا فَاَعْبُدُونِ ﴾ وغير ذلك من الآيات ـ ولما

بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً إلى اليمن قال له « إنَّـكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلاَّ الله ، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة » الحديث وفي طريقته وسيرته صلى الله عليه وسلم في الدعوة خير قدوة وأكمل منهج حيث مكث صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك قبل أن يأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وقبل أن ينهاهم عن الربا والزنا والسرقة وقتل النفوس بغير حق

٥ ـ الصبر على ما يلاقي في سبيل الدعوة إلى الله من المشاق وما يواجه من أذى الناس، لأن طريق الدعوة ليس مفروشاً بالورود ، وإنما هو محفوف بالمكاره والمخاطر ، وخير أسوة في ذلك هم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فيما واجهوا من أقوامهم من الأذى والسخرية ـ كما قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَقَدْ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِروا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون ﴾ وقال ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَت رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ وكذلك ينالُ أتباعُ الرسل من الأذى والمشاق بقدر ما يقومون به من الدعوة إلى الله اقتداءً بهؤلاء الرسل الكرام ـ عليهم مِن الله أفضل الصلوات وأزكى السلام

٦ ـ على الداعية أن يكون متحلياً بالخلق الحسن مستعملاً للحكمة في دعوته لأن هذا أدعى لقبول دعوته ـ كما أمر الله نبييه الكريمين موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام أن يستعملا ذلك في مواجهة أكفر أهل الأرض وهو فرعون الذي ادعى الربوبية ـ حيث قال سبحانه ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ وقال تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿ إذْهَبْ إلىٰ فِرْعَوْنَ إنَّـهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَلْ لَكَ إلىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ وقال تعالى في

حق نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيْظَ القَلْبِ لَانفضُّوا مِن حَوْلِكَ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

٧ ـ على الداعية أن يكون قوي الأمل لا ييأس من تأثير دعوته وهداية قومه ولا ييأس من نصر الله ومعونته ولو امتد الزمن وطال عليه الأمد وله في رُسُلِ الله خير قدوة في ذلك ـ فهذا نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ـ وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لما اشتد عليه أذى الكفار وجاءه ملك الجبال يستأذنه أن يطبق عليهم الأخشبين ـ قال « لا بل استأني بهم ، لعل الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » ومتى فقد الداعية هذه الصفة ، فإنه سيقف في أول الطريق ويبوء بالخيبة في عمله . وإن أية دعوة لا تقوم على هذه الأسس ويكون منهجها قائماً على منهج الرسل فإنها ستبوء بالخيبة وتضمحل وتكون تعباً بلا فائدة ـ وخير دليل على ذلك تلك الجماعات المعاصرة التي اختطت لنفسها منهجاً للدعوة يختلف عن منهج الرسل ـ فقد أغفلت هذه الجماعات إلا ما قل منها ـ جانب العقيدة ـ وصارت تدعو إلى إصلاح أمور جانبية ـ فجماعة تدعو إلى إصلاح الحكم والسياسة وتطالب بإقامة الحدود وتطبيق الشريعة في الحكم بين الناس ـ وهذا جانب مهم ـ لكنه ليس الأهم ـ إذ كيف يطالب بتطبيق حكم الله على السارق والزاني قبل أن يطالب بتطبيق حكم الله على المشرك ـ كيف يُطالب بتطبيق حكم الله بين المتخاصمين في الشاة والبعير ، قبل أن يطالب بتطبيق حكم الله على عباد الأوثان والقبور ، وعلى الذين يلحدون في أسماء الله وصفاته فيعطلونها عن مدلولاتها ويحرفون كلماتها ـ

أهؤلاء أشد جرماً أم الذين يزنون ويشربون الخمر ويسرقون؟!!! إن هذه الجرائم إساءة في حق العباد، والشرك ونفي الأسماء والصفات إساءة في حق الخالق سبحانه ـ وحق الخالق مقدم على حقوق المخلوقين ـ يقول شيخ الاسلام ابن تيمية في كتاب الاستقامة (٤٦٦/١) « فهذه الذنوب مع صحة التوحيد خير من فساد التوحيد مع عدم هذه الذنوب »[1] انتهى، هذا وجماعة أخرى تنتمي إلى الدعوة ـ لكنها تسير على منهج آخر يختلف أيضاً عن منهج الرسل، فلا تعير العقيدة أهمية ـ وإنما تهتم بجانب التعبد وممارسة بعض الأذكار على نهج الصوفية ويركزون على الخروج والسياحة والذي يهمهم هو استقطاب الناس معهم دون نظر إلى عقائدهم ـ وهذه كلها طرق مبتدعة تبدأ من حيث انتهت دعوة الرسل ـ وهي بمثابة من يعالج جسداً مقطوع الرأس ـ لأن العقيدة من الدين بمنزلة الرأس من الجسد ـ والمطلوب من هذه الجماعات أن تصحح مفاهيمها بمراجعة الكتاب والسنة لمعرفة منهج الرسل في الدعوة إلى الله ـ فإن الله سبحانه أخبر أن الحاكمية والسلطة التي هي محور دعوة هذه الجماعة التي أشرنا إليها لا تتحقق إلاَّ بعد تصحيح العقيدة بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ـ قال الله تعالى ﴿ وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ وهؤلاء يريدون قيام دولة إسلامية قبل تطهير

---

(١) ودليل هذا قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللّٰهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ ﴾ وقد تعجب حين تعلم أنا قد وجدنا لبعض قادة هذه الجماعة كتباً يؤيدون فيها التبرك بالأضرحة والتوسل بالصالحين

البلاد من العقائد الوثنية المتمثلة بعبادة الموتى والتعلق بالأضرحة بما لا يختلف عن عبادة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى بل تزيد عليها انهم يحاولون محالا

ومن طلب العلا من غير كد

فقد أضاع العمر في طلب المحال

إن تحكيم الشريعة وإقامة الحدود وقيام الدولة الإسلامية واجتناب المحرمات وفعل الواجبات كل هذه الأمور من حقوق التوحيد ومكملاته وهي تابعة له فكيف يُعتنى بالتابع ويُهمل الأصل ، وإنني أرى أن ما وقع لتلك الجماعات من مخالفة لمنهج الرسل في طريقة الدعوة إلى الله إنما نشأ من جهلهم بهذا المنهج - والجاهل لا يصلح أن يكون داعية ، لأن من أهم شروط الدعوة العلم كما قال تعالى عن نبيه ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فأهم مؤهلات الداعية العلم[1] ثم إننا نرى هذه الجماعات المنتسبة إلى الدعوة مختلفة فيما بينها فكل جماعة تختط لنفسها خطة غير خطة الجماعة الأخرى وتنتهج غير منهجها وهذه نتيجة حتمية لمخالفة منهج الرسول صلى الله عليه وسلم فإن منهج الرسول واحد لا انقسام فيه ولا اختلاف عليه كما قال تعالى ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ فأتباع الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه السبيل الواحدة لا يختلفون وإنما يختلف من خالف هذه السبيل كما قال تعالى ﴿ وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ولاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ولما كان أمر هذه الجماعات المخالفة والمختلفة يشكل خطراً على الإسلام قد يصد عنه من

---

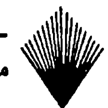
(١) ويعض هؤلاء الذين ينتسبون للدعوة إلى الإسلام لو سألتَ أحدهم ما هو الإسلام وما هي نواقضه لم يستطع أن يجيب إجابة صحيحة فكيف جاز لمثل هذا أن يكون داعية ؟!!!

أراد الدخول فيه كان لا بد من بيانه وبيان أنه ليس من الإسلام في شيء كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ ولأن الإسلام يدعو إلى الإجتماع على الحق كما قال تعالى ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولاَ تَتَفَرَّقُوا فيه ﴾ وقال تعالى ﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾ لما كان بيان ذلك واجبا وكشفه لازما قام جماعة من العلماء من ذَوي الغيرة والتحقيق بالتنبيه على أخطاء تلك الجماعات وبيان مخالفتها في الدعوة لمنهج الأنبياء لعلها ترجع إلى صوابها - فإن الحق ضالة المؤمن - ولئلا يغترَّ بها من لا يعرف ما هي عليه من خطأ - ومن هؤلاء العلماء الذين تولوا هذه المهمة العظيمة عملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة » قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ولأئمة المسلمين ، وعامَّتهم » من هؤلاء لذين بَيَّنُوا ونصحوا فضيلة الشيخ الدكتور : ربيع بن هادي المدخلي في هذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو بعنوان « منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل » فقد بَيَّنَ وفَّقه الله وجزاه خيراً - منهج الرسل في الدعوة إلى الله كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، وعرض عليه منهج الجماعات المخالفة ليتضح الفرق بين منهج الرسل وتلك المناهج المختلفة والمخالفة لمنهج الرسل ، وناقش تلك المناهج مناقشة علمية منصفة مع التعزيز بالأمثلة والشواهد فجاء كتابه - والحمد لله - وافياً بالمقصود كافياً لمن يريد الحق - وحجة على من عاند وكابر - فنسأل الله أن يثيبه على عمله ، وينفع به وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه

وكتبه صالح بن فوزان

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة بقلم عبد الرحمن عبد الخالق

اطلعت على ما كتبه أخي وزميلي ورفيقي أربع سنوات على مقعدٍ واحدٍ في كلية الشريعة بالجامعة الاسلامية فضيلة الدكتور ربيع بن هادي المدخلي في هذا الكتاب المبارك إن شاء الله تعالى ، واحب أن أُذَكِّر إخواننا القراء قبل الشروع في هذا الكتاب بما يلي

أولا الكتاب كله يدور حول قضية مركزية أساسية وهي باختصار « التوحيد منطلق الدعوة إلى الله وغايتها » فلا دعوة إلى الله بغير توحيد ، وكل دعوة لا يُجعل التوحيد مرتكزها وأساسها فليست بدعوة إلى الله مهما تَسَمَّت باسم من أسماء الإسلام وانتسبت إليه ، وذلك أن الرسل جميعاً وعلى رأسهم سيدهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانت دعوتهم الى توحيد الله بدءاً وغايةً ونهاية فكل رسول قال لقومه أول ما قال ﴿ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهما لكُم مِن إلَهٍ غَيرهِ ﴾

وكانت هذه القضية هي نقطة الفصل بين مَنْ آمن به ومَنْ فارقه والخط الفاصل بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، فكل من أذعن للرسل أن الله هو الاله الواحد ، وأنه لا عبادة حقا إلا له انضم الى ركب الإيمان وانتسب إلى أهل الإسلام ، وكُلُّ من خالف ذلك وُسِمَ بالكفر والعصيان. وكان من حزب الشيطان .

ولذلك فكل دعوة تريد ان تُنْسَبَ إلى الله فيجب عليها أولا تصحيح

الاعتقاد وتثبيته عند أفرادها والمنتسبين إليها ، وأي دعوة تسوّي بين الموحد والمشرك فليست بدعوة الله وكل دعوة تجمع بين من يصلي لله وحده ويدعو الله وحده وبين من يسجد لغيره ، ويدعو ميتا ، فلا يمكن أن تكون هذه دعوة منسوبة إلى الله وأن يكون أتباعها على بصيرة وهكذا كل دعوة ، لا تفرق بين حكم الله وحكم غيره وطاعة الله وطاعة سواه فيما يخالفه ويسخطه لأن الحكم لله وحده والأمر له وحده كما قال جل وعلا ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ . فالتوحيد الذي أُرسلت به الرسل هو أن تكون العبادة كلها لله ، والخضوع كله لله ، وأن يكون الرب هو مصدر الدين والتشريع وهو قبلة المسلم في صلاته وزكاته وحجه ودعائه وخوفه ورجائه

لقد كان الكتاب يدور كله حول هذه القضية المركزية التي أراد الكاتب أن يُذَكِّرَ الدعاة بها وأن يقول لهم المنطلق من ها هنا ، كما كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

ثانيا لا شك أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قد جاءوا أيضاً من أجل إنشاء إنسان صالح في أخلاقه وتصرفاته ، وأمة صالحة تقيم العدل والقسط ، وتعيش في ظلال شرع الله وأمره ونهيه

ولا شك أن حظ الرسل والأنبياء كان متفاوتاً في هذه القضية فهناك من الأنبياء من لم يؤمن به أحد وهناك من آمن به الرجل والرجلان. وهناك من كان معه الرهط وهناك من الرسل من اتبعه السواد العظيم ، والجم الغفير . وكَوَّنَ بذلك أمة تقوم بأمر الله وتعلي كلمته وتجاهد أعداءه ولا شك أن أعظم الرسل في هذا حظاً ونصيباً هو نبينا صلى الله عليه وسلم الذي أخرج الله به خير أمة ، وبنى به أعظم جماعة عرفتها الأرض

ولا شك ، أن دعوة الرسل إلى اصلاح نفس الإنسان ، وتطهير المجتمعات من الظلم والفواحش قد كان في المرتبة الثانية بعد التوحيد فما كان يسمى الإنسان صالحاً إلا إذا وحد الله وآمن بما جاء به الرسول ، وما

كان يسمى المجتمع صالحاً إلا إذا أعلن أفـراده الإسلام ، وأعلنـوا الاستسلام والإذعان لأمر خالق السموات والأرض

حقـا لقد كـانت دعوة الـرسل جميعـا تقـرن بين التـوحيـد وتـرك الـظلم والفسـاد في الأرض ، كمـا دعـا شعيب قـومـه إلى عـدم تـطفيف الكيـل والميـزان ، ولوط قـومه إلى تـرك الفاحشـة ، والنبي محمد قـومه ـ في مكـة ـ إلى الصـدق والبـر والعفـاف ، والصلة الـخ ولكنهم جميعـاً مـا ضمـوا إليهم ، ولا اعتـرفوا بـإسلام مسلم معهم إلا من كـان على مثـل معتقـدهم في الله ورسالاته كما قال الله تعالى ﴿ **قل يـا أهل الكتـاب تعالـوا إلى كلمة سـواء بيننـا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشـرك به شيئـاً ولا يتخذ بعضنـا بعضا أربـاباً من دون الله** ﴾

وكما قال تعالى ﴿ **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقـد اهتـدوا . وإن تـولـوا فإنما هم في شقـاق** ﴾ وهذا يعني أنه لا بـد لجماعـة الدعـوة إلى الله أن يكون أفـرادها على نسق واحـد من الايمـان وعلى فهم متقـارب من التـوحيـد وأن أمة الاسلام لا تكون أمة الإسـلام حقاً إلا إذا كـانت أمة مـوحدة ، مؤمنـة بالله كما أمرها الله

ثالثا لا يجـوز بتاتـاً أن تتحول الـدعوة إلى الله الى حـزب سياسي من أحـزاب الـدنيـا فتتنـازل عن عقيـدتهـا أو بعضهـا من أجـل تجميـع النـاس وإرضاء المنحرفين ، والوصول إلى السلطة والحكم وبهـذا تُفَرِّغُ الإسـلام من مضمونه والـدعوة من حقيقتهـا وتصبح حـزباً سيـاسياً يـرفع شعـار الإسلام من أجـل استهـواء النـاس وإستـدرار عـاطفتهم والـركـوب على ظهـورهم الى السلطان ، والحـال أن الإسـلام المـزعـوم إسـلام مفـرغٌ من العقيـدة ، خـاوٍ وخـالٍ من الإيمان والتـوحيـد ، إسـلام في شكـل الإسـلام ولكنـه لا يحمـل روحه وقلبه

إنـه أشبه بـالسيف الخشبي يحمـل مسمى السيـف ولا يملك حده ونصله وحقيقته

هذه هي القضية الثالثة التي أراد صاحب الكتاب أن يصل إليها ، وأن يوجه الأنظار لها

وقد يظن ظانٌّ من قراءة الرسالة أن صاحبها يفصل في الإسلام بين الدين والدولة ، بين العقيدة والحكم ، بين الإيمان والعمل ولا شك أن هذا فهم خاطىء ، وشيء لم يرده هذا الكتاب ولم يبتغِهِ ولكنه قد يفهم عنه لما في ثنايا الكتاب من توضيح أهمية التوحيد وجعله مقدمة لكل شيء وغاية لكل شيء . بل الإسلام لا ينفك الإيمان فيه عن العمل والدين فيه عن الدولة والحكم . بل الشرك كل الشرك هو الإذعان لغير الله ، والرضا بغير شرعه ، والتحاكم إلى غيره ممن يحكم بهوى نفسه أو هوى قومه أو شيء اخترع له ، بل الطاغوت على الحقيقة من أمر الناس بطاعته فيما يعصى به الله تبارك تعالى

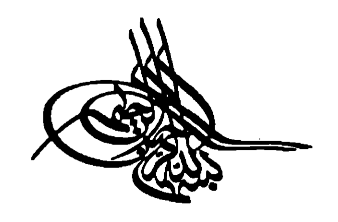
ولا شك أن الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة وأن حرب الطواغيت هو أعظم الجهاد ، وأن كل من حكم بغير شرع الله طاغوت ، وان الدعاة إلى الله مطلوب منهم أمس واليوم وغداً أن يزيلوا الطواغيت عن صدر هذه الأمة ، وأن يجاهدوا في الله حق جهاده حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ولا تكون كذلك إلا اذا كان شرع الله هو المطبق ودينه هو المخضوع له

هذا وأسأل الله أن ينفع المسلمين بهذه الرسالة الطيبة

وكتبه

عبد الرحمن بن عبد الخالق بن السيد يوسف

في غرة المحرم سنة ١٤٠٦



إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئآت أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون

وبعد ـ فإن الدافع لاختيار هذا الموضوع عدة أمور ، من أهمها

أولاً ـ أن الأمة الإسلامية اختلفت في مناحٍ شتى عقدية وغيرها وتفرقت بها السبل ، فينزل بها من الويلات ـ نتيجة لهذا التفرق ولعدم الاحتكام في قضايا الخلاف إلى كتاب ربهم وسنّة نبيهم ـ ما لا يعلم مداه وفداحته إلاّ الله من تمزق صفوفهم وتأجج نيران الخلاف والخصومات فيما بينهم ، ثم تغلب أعداء الإسلام على أوطانهم واستباحتهم لبيضتهم واستعبادهم واستذلالهم .

ثانياً ـ حدوث تيارات فكرية برزت في الساحة الإسلامية بطرق ومناهج ، لإصلاح حال الأمة وانقاذها

منها ـ السياسي

ومنها ـ الفكري

ومنها ــ الروحي .

وكل واحد من هذه التيارات يدعي ممثلوه أنه المنهج الإسلامي الحق الذي يجب اتّباعه والذي لا ينقذ الأمة سواه .

هذان السببان مع أسباب أخر دفعتني إلى القيام بواجب من أعظم الواجبات وأهمها ألا وهو بيان منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله في ضوء الكتاب والسنّة وبيان مزاياه التي لا يُشارك فيها وبيان ضرورة اتباعه وحده لأنه الطريق الأوحد الذي يوصل إلى الله ويُكسب رضاه وهو السبيل الأوحد لانقاذ الأمة والموصل إلى السيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة

وبعد ــ فإن الله تعالى الخالق البارىء المصور العليم الحكيم قد خلق هذا الكون العظيم ودَبَّره ونَظَّمه بعلمه المحيط وحكمته البالغة وقدرته الشاملة ، لحكم جليلة وغايات نبيلة بعيدة كل البعد عن العبث والباطل واللعب

قال تعالى

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِيْنَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إلاَّ بِالحقِ ولكنَّ أكثرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان : ٣٨ - ٣٩]

وقال تعالى

﴿ حمٓ * تنزيلُ الكتابِ مِنَ اللّهِ العَزِيْزِ الحَكِيْم * ما خَلَقْنَا السَّمٰوات والأَرْضَ وما بَيْنَهُمَا إلاَّ بالحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى والَّذِيْنَ كفروا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف ١ - ٣]

وخلق الجن والإنس وبَيَّنَ الحكمة العظيمة والغاية الكريمة التي خلقهم من أجلها

قال تعالى

﴿ وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ * مـآ أُريدُ مِنْهُمْ مِن رِزْقٍ ومـا أُريـدُ أَنْ يُـطْعمـونِ * إِنَّ اللّهَ هـو الـرزاق ذُو القُـوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الـذاريـات ٥٦ ـ ٥٨]

وقال تعالى

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمـا خَلَقْناكُمْ عَبَثـاً وأَنَّكُمْ إلينا لاَ تُـرجعـون * فَتَعَـالىٰ اللّهُ الْـملِكُ الـحقُّ لا إلٰــه إلاَّ هــو ربُّ الْـعَــرْشِ الكــريـم ﴾ [المـؤمـنــون ١١٥ ـ ١١٦]

وقال تعالى

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدى ﴾ [القيامة ٣٦]

أي لا يؤمر ولا ينهى ؟

وقال تعالى

﴿ تَبَـارَكَ الَّـذِي بِيَـدِهِ ٱلمُلْك وَهُـوَ عَلَى كُـلِّ شيء قـديـرٌ * الـذي خَلَقَ المــوتَ والحيـاةَ ، لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكم أَحْسَنُ عَمَــلاً وَهُــوَ العَــزِيــزُ الغَفُــوْرُ ﴾ [الملك ١ ـ ٢]

فـأخبر تعـالى أنـه مـا خلقهم إلاَّ لـلإبتـلاء والاختبـار لِيَتَبَيَّنَ أَيُّهم أحسن عملاً بانقياده لمنهج الله واتباعه لرسل الله .

وقال تعالى

﴿ يَـا أَيُّها النـاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّـذِي خَلَقَكُمْ والـذين من قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تتقـونَ * الَّذِي جَعَـلَ لَكُمُ الأَرض فِرَاشـاً والسَّماءَ بنـاءً وأَنْزَلَ من السَّمَـاءِ ماءً فَـأَخـرجَ بـه مِنَ الثَّمَـرَاتِ رِزْقـاً لكم فـلا تَجْعَلُوا لِلّهِ أنـداداً وأنتم تعلمـون ﴾ [البقرة ٢١ ـ ٢٢].

فَأَمرهم أن يقوموا بالغاية التي خلقهم من أجلها

وبَيَّنَ لهم أنه قد وَفَّرَ وهيأ لهم كل الأسباب التي تساعدهم على القيام بمهمتهم العظيمة ، وحذرهم من الإنحراف عن هذه الغاية، والتنكر لهذه النعم الجليلة ، ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمونَ ﴾

وقال تعالى

﴿ وَلَقَدْ كرَّمْنَا بَنِيْ آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلبَرِّ والبَحْرِ وَرَزَقْنَاهم مِنَ الطَّيِّباتِ وفضَّلنَاهُم على كثيرٍ ممن خَلَقْنَا تفضيلاً ﴾ [الإسراء ٧٠]

وما أكرم الله الإنسان هذا الإكرام وأحلَّه هذه المنزلة الرفيعة إلَّا لعظم الغاية التي خُلِق من أجلها ، ألا وهي عبادة الله وحده وتعظيمه وتنزيهه ، عن كل النقائص وعن اتخاذ الشركاء والأنداد تعالى الله عن ذلك علوًّاً كبيراً

وكثيراً ما نوه الله بكرامة الإنسان ومنزلته في هذا الكون ، وأن هذا الكون ، قدْ سُخِّر لراحته وسعادته ، حتى يؤدي وظيفته ويقوم بغايته التي خُلِقَ من أجلها على أتم الوجوه وأكملها

قال تعالى

﴿ قُل لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمنوا يُقيموا الصلاة ويُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فيه ولا خِلاَلٌ اللّهُ الذي خلق السمٰوات والأرض وأَنْزَلَ مِنَ السمآءِ مآءً فأخرجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسخّر لَكُم الفلك لِتَجْرِيَ في البحر بأمره وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهارَ * وَسَخَّرَ لَكُم الشَّمْسَ والقَمَرَ دَائِبَيْن وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوْهُ وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصَوْهَا إنَّ الإنسانَ لَظَلُوْمٌ كفارٌ ﴾ [إبراهيم ٣١ - ٣٣] .

إكرام الإنسان بالعقل والفطرة

وإلى جانب هذه النعم العظيمة والإكرام الفائق لهذا الإنسان فقد منحه نعمة العقل الذي يرفعه إلى مستوى التكاليف الإلٰهية ويؤهله لإدراكها وفهمها ، وزوده بالفطرة التي توائم ما يأتي به رسل الله عليهم الصلاة والسلام من الوحي الكريم ومن الدين الحق الذي يشرعه الله وينهجه لهذا الإنسان على ألسنة الرُّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

قال تعالى

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّيْنِ حَنِيْفاً فِطْرَةَ[1] اللّهِ التي فَطَر النَّاسَ عليها لاَ تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذٰلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ولكن أكثر النَّاسِ لا يَعْلَمُوْن ﴾

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« مَا مِنْ مَوْلـودٍ إلاَّ يُوْلـدُ عَلَى الفِطْرةِ ، فَـأَبواه يُهَـوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّـرانِهِ أَو يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيْمَةُ بَهيمةً جَمْعَاء ، هل تُحِسُّـوْنَ فِيْهَا مِنْ جَـدْعاء » ، ثم يقول أبو هريرة ـ رضيَ الله عنه ـ

﴿ فِطْرَةَ الله الَّتِي فطر الناسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية[2]

---

(١) الفطر : الإبتداء والاختراع ، والفِطرة : الحالة ، كالجِلسةِ والرِّكبةِ
والمعنى أنـه يُولـد على نوع من الجبلة ، والطبع المتهيء لقبـول الـدين فلو تُـرك عليهـا لاستمر على لـزومهـا ، وإنمـا يعـدل عنـه من يعـدل بـالآفـة من آفـات البشـر والتقليد . . النهاية لابن الأثير (٣/٤٥٧)
وقـال الحـافظ ابن حجـر ـ رحمـه الله ـ في الفتـح (٣:٢٤٨) « اختلف النـاس في المراد بالفطرة ، وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرةِ : الإسلام قال ابن عبد البر : هـو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ الإسلام » .

(٢) أخرجه البخاري ٢٣ ـ كتاب الجنائز ٧٩ ـ باب إذا أسلم الصبي فمات يُصلىٰ عليـه ، =

وعن عياض بن حمار المجاشعي - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - خطب ذات يوم ، فقال في خطبته

« إنَّ رَبي عز وجل أمرني أن أُعَلِّمَكُم ما جهلتُم ، مما عَلَّمني في يَوْمِي هذا كلُّ مال نَحَلْتُه[1] عبادي حلالٌ ، وإنِّي خَلَقْتُ عبادي حنفاءَ[2] كُلَّهُم وإنَّهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم[3] عن دينهم ، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم ، وأَمَرَتْهم أَنْ يُشركوا بي ما لم أُنَزِّلْ به سلطاناً » الحديث[4]

إكرام البشر بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم

ثم لم يَكلُهم الله إلىٰ ما آتاهم من فطرة وعقل ، بل أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتب لِتُبَيِّن لهم الحق من الباطل

= حديث ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ٩٢ - باب ما قيل في أولاد المشركين حديث ١٣٨٥ ، ٦٥ - كتاب التفسير ، حديث ٤٧٧٥ .

ومسلم ، ٤٦ - كتاب القدر ، حديث ٢٢ ، ٢٣ ، وأبو داود ، ٣٤ - كتاب السنة ١٨ - باب في ذراري المشركين ، حديث ٤٧١٤ ، وأحمد في المسند (٢/٣١٥، ٣٤٦، ٣٩٣)، (٢/٢٣٣، ٢٧٥)، ومالك في الموطأ (١/٢٤١)، ١٦ - كتاب الجنائز حديث (٥٢)، والترمذي ، في الجامع (٤/٤٤٧)، ٣٣ - كتاب القدر، ٥ - باب ما جاء « كل مولود يولد على الفطرة ، حديث (٢١٣٨) وفي لفظٍ في البخاري ومسند أحمد والموطأ والترمذي « كل مولود يولد على الفطرة » .

(١) نحلته أعطيته ، والمراد : كل مال أعطيته عبداً من عبادي فهو له حلال ، والمراد : إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي وغير ذلك ، وإنها لم تصر حراماً بتحريمهم وكل مال ملكه العبد فهو له حلال حتى يتعلق به حق .

(٢) أي مسلمين .

(٣) أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه ، وجالوا معهم في الباطل.

(٤) أخرجه مسلم (٤/٢١٩٧) ، ٥١ - كتاب الجنة ٢٦ - باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، حديث ٦٣.

ولتكـونَ مرجعـاً لهم ، فيما يختلفـون فيـه ، حتى لا يبقى للنـاس أي عـذر ، ولتقوم عليهم الحجة ، فلا يبقى لهم حجة على الله بعد الرسل

وكَلَّفَ جميع الأمم بطاعـة هؤلاء المصطفين الأخيـار وآتّباعهم والإنقيـاد لهم وأنـزل أشد العقـاب بمن كذَّبهم وعـاندهم في الـدنيا ، وسـوف ينزل بهم العذاب الأنكى والأشد ، العذاب السرمدي الخالد في دار الجزاء العادل

مـا هي رسالـة هذه الصفـوة المختارة من البشـر ـ صلوات الله وسـلامـه عليهم وما الذي قدموه لأممهم؟ .

إن رسالاتهم تشمل كل خير وتبعد من كل شر ، فقدمـوا للإنسـانية كـل مـا يسعدهـا في الدنيـا والآخرة ، فمـا من خير إلاَّ دلّـوا الناس عليـه ، ولا شر إلاَّ حذروا الناس منه

عن عبـد الله بن عمرو بن العـاص ـ رضي الله عنهمـا ـ قـال كنـا في سفر ، فنزلنـا منزلاً فمنـا من يُصلح خباءه ، ومنـا من ينتضل[1] ، ومنـا من هو في جشره[2] ، إذ نادى منادي رسول الله ـ ﷺ ـ الصلاةَ جامعـةً[3] ، فاجتمعنـا إلى رسول الله ـ ﷺ ، فقال

« إنَّهُ لم يكن نبيٌّ قبلي إلاَّ كان حقاً عليه أَنْ يدلَّ أمَّتَهُ على خيرِ ما يعْلَمُهُ ويُنْذرهم شـرّ مــا يَعْلَمُـهُ لهُم ، وإن أُمَّتَكُمْ هــذه جُعِلَ عــافِيَتُهـا في أَوَّلهـا وَسَيُصِيْبُ آخـرَهَـا بـلاءٌ ، وأُمـورٌ تُنْكِـرُوْنَهَـا وتَجِيْءُ فِتَنٌ فيـرقق[4] بَعْضُها بَعْضـاً ، وتجيءُ الْفِتنَةُ ، فيقـول المؤمن هـذه مُهْلِكَتِيْ ثم تنكشفُ وَتَجِيْءُ الْفِتْنَةُ ، فَيَقُوْلُ الْمُؤمِن هٰذِهِ هٰذِهِ فَمَن أَحَبَّ أَنْ يـزحْزَحَ عن النـار ، ويُدْخَـلَ

(١) من المناضلة ، وهي المراماة بالنشاب
(٢) الجشر : هي الدواب التي ترعى ، وتبيت مكانها
(٣) الصلاة جامعة ، هي بنصب الصلاة على الإغراء ونصب « جامعة » على الحال
(٤) أي يصير بعضها رقيقاً أي خفيفاً لعظم ما بعده .

الجنّـة ، فَلْتَأْتِـهِ مَنِيَّتُهُ وَهُـوَ يُؤمن بـالله ، وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ ، وليـأتِ إلى النَّـاسِ الَّذِيْ يُحِبُّ أَنْ يؤتىٰ إلَيْهِ ، وَمَنْ بايع إمَـاماً ، فـأَعْطَاه صَفْقَـةَ يَدِهِ وثمـرة قَلْبِهِ ، فَلْيُطِعْهُ إنِ آسْتَطَاع ، فَإن جاءَ آخر ينازعهُ فاضربوا عُنُقَ الآخَرَ »

هذه رسالة كل الأنبيـاء تدل على كـل خير وتحـذر من كل شـر لكن من أين تنطلق وبماذا تبدأ وعلى أي شيء تركـز ؟ إن هناك دعـائمَ وقواعـدَ وأصولاً تركز عليها دعواتهم وتكون أول منطلقاتهم في دعوة الناس إلى الله

تلك الأسس والقواعد هي

١ ـ التوحيـد

٢ ـ النبوات

٣ ـ المعاد[1]

هذه الأسس الثلاثـة هي ملتقى دعواتهم وأصـولها وقـد اهتم بها القـرآن غـايـة الاهتمـام وبَيَّنهـا غـايـة البيـان وهي أهم مقـاصـده التي يـدور عليهـا ويكـررها ، ويـورد الأدلة العقليـة والحسية عليهـا في جميع سـوره وفي غالب قصصه وأمثاله ، يعرف ذُلك مَن لَهُ كمالُ فهم وحسن تدبر وجودة تصور .

وقـد عُنِيت بهـا كتب الله بـأجمعهـا واتفقت عليهـا الشـرائـع السمـاويـة بأسرها

وأهم هذه الأسس الثلاثـة وَأَجَلُّها وَأَصْـلُ أُصولهـا هو تـوحيد الله تبـارك وتعـالى الذي تضمنتـه غالب سـور القرآن ، بـأنـواعـه الثـلاثـة المشهـورة بـل تضمنته كل سورة من سور القرآن ، فإن القرآن : ـ

١ ـ إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو : التوحيد العلمي الخبري

---

(١) ألف في بيان هذه الأسس الثلاثة الإمام الشوكـاني كتابـاً سماه : « ارشـاد الثقات إلى اتفـاق الشرائـع على التوحيـد ، والمعاذ والنبـوات » طبع دار الكتب العلميـة ببيروت لبنان ، وقد ساق أدلته من القرآن والتوراة ، والأناجيل .

٢ ــ وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبي

٣ ــ وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ، ومكملاته

٤ ــ وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد ، وما فعل بهم في الدنيا ، وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء التوحيد

٥ ــ وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم[1]

---

(١) شرح الطحاوية ص ٨٨ الطبعة الأولى ١٣٩٢ نشر المكتب الإسلامي وأصله من كلام الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله .

توحيد الألوهية وأهميته

وسوف أتناول توحيد الألوهية وأهميته لسببين

أولاً   إنه الجانب الأهم من دعوات الرسل الذي عرضه علينا القرآن ولأنه موضوع الصراع الدائر بينهم وبين خصومهم من المستكبرين والمعاندين من كل الأمم

ولا يزال موضوع الصراع إلى اليوم ، ولعله يستمر إلى يوم القيامة ابتلاءً واختباراً لورثة الرسل ورفعاً لمنزلتهم

ثانياً   إن أخطر وأشد وأصعب انحراف منيّ به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها في هذا الجانب في أكثر جهال المسلمين وفي كثير من مثقفيهم والمنتسبين إلى العلم منهم

فلنبدأ بعرض دعوات الأنبياء بصفة عامة ثم نعرض دعوات بعضهم بصفة خاصة

قال تعالى

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِيْ كُلِّ أُمَّةٍ رَسُوْلاً أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ واجْتَنِبُوْا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللّهُ وَمِنْهُم مَنْ حقَّتْ عَلَيْهِ الضَلاَلَةُ فَسِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِيْنَ ﴾ [النحل   ٣٦]

وقال تعالى

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُوْلٍ إِلاَّ نُوْحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُوْنِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥]

وقال تعالى بعد أن ذكر قصص عدد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : -

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ [الأنبياء ٩٢]

وقال تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوْا من الطَّيِّبات وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّيْ بِمَا تَعْمَلُوْنَ عَلِيْمٌ * وَإِن هَٰذِهِ أُمتكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُم فَاتَّقُوْنِ ﴾ [المؤمنون ٥١ - ٥٢]

قال الحافظ ابن كثير : قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ يقول « دينكم واحد »[١]

وفي معنى الآيتين من السنة ، قوله - ﷺ - :

« أَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِعِيْسَىٰ بنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ[٢] أُمَّهَاتهم شَتَّىٰ وَدِيْنُهُمْ وَاحِدٌ »[٣]

---

(١) التفسير (٥/٣٦٥)

(٢) العلات - بفتح المهملة : الضرائر ، وأصله من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى ، كأنه علَّ منها ، والعلل : الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الإخوة من الأب ، وأمهاتهم شتى. فتح الباري (٦/٤٨٩) وفي النهاية (٣/٢٩١) : « الأنبياء أولاد علات » أولاد العلات الذين أمهاتهم مختلفة ، وأبوهم واحد ، أراد أن إيمانهم واحد =

وقال تعالى عن أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّيْنِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوْحاً وَالَّذِيْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَىٰ وَعِيْسَىٰ أَنْ أَقِيْمُوْا الدِّيْنَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوْا فِيْهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِيْنَ مَا تَدْعُوْهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِيْ إِلَيْهِ مَنْ يَشَآءُ وَيَهْدِيْ إِلَيْهِ مَنْ يُنِيْبُ ﴾ [الشورى : ١٣]

تلك هي دعوة الأنبياء جميعاً وعلى رأسهم أولو العزم منهم الأنبياء الذين يبلغ تعدادهم أربعة وعشرين ألفاً ومائة ألف[1] يسيرون في دعوتهم في منهج واحد ، وينطلقون من منطلق واحد ، هو التوحيد ، أعظم القضايا والمبادىء التي حملوها إلى الإنسانية جميعاً في جميع أجيالهم ومختلف بيئآتهم وبلدانهم وأزمانهم

مما يدل أن هذا هو الطريق الوحيد الذي يجب أن يُسلك في دعوة الناس إلى الله ، وسنة من سننه التي رسمها لأنبيائه وأتباعهم الصادقين ، لا

= وشرائعهم مختلفة » .

(٣) أخرجه البخاري ٦٠ ـ الأنبياء حديث (٣٤٤٣) ، ومسلم (١٨٣٧/٤) ٤٣ ـ كتاب الفضائل ٤٠ ـ باب فضل عيسى عليه السلام ، حديث (١٤٥) وأحمد في المسند (٣١٩/٢، ٤٠٦، ٤٨٢).

(١) إشارة إلى حديث أبي ذر : أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٤٤٧/٥) وأحمد في المسند (١٧٨/٥) (١٧٩/٥) من طريق المسعودي عن أبي عمر الدمشقي عن عبيد بن الحسحاس عن أبي ذر .
وابن حبان كما في الموارد رقم ٩٤ وأبو نعيم في الحلية (١٦٦/١ ـ ١٦٨) وأشار إلى طرق أخرى إلى أبي ذر وأحمد (٢٦٥/٥) وابن أبي حاتم في تفسيره نقلاً عن ابن كثير (٤٢٣/٢) والطبراني (٢٥٨/٨) وهناك طريق أخرى عن أبي امامة في عدد الرسل وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أخرجه الطبراني (١٣٩/٨) وابن حبان كما في الموارد رقم (٢٠٨٥) قال ابن كثير وهذا على شرط مسلم . وقال الهيثمي « رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبي وهو ثقة »

يجوز تبديلها ولا العدول عنها

نماذج لدعوات بعض الرسل

ثم إن الله تعالى أخبر عن بعض أفراد الأنبياء العظام كيف واجهوا أقوامهم وإذا بهم يسيرون في الخط العام الذي رسمه الله لهم وإذا بهم في المنهج الذي قرره الله لجميعهم لا تند عنه دعوة أحد منهم

قال تعالى

﴿ ولقَدْ أَرْسَلْنا نوحاً إلىٰ قومه إنِّي لكُم نَذِير مبين * أن لا تَعْبُدوا إلَّا اللّهَ إنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيم * فقال الَّذِين كفروا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَراكَ إلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلَّا الَّذِيْنَ هُمْ أَرَاذلنا بادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْل بل نظنكم كاذبين * وإلىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ آعْبُدوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ المَلأُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِين * قَالَ : يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِيْنِ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَآذْكُرُوا إذ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَآذْكروا آلآءَ اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قالوآ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَني في أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهآ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إنِّي مَعَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرين * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنين ﴾ [الأعراف : ٦٥ ـ ٧٢]

وهكذا دعوات كل الأنبياء ، كلهم ساروا في هذا المنهج في الدعوة

إلى الله توحيد الله وعبادته وحده أوّلاً وواجههم أقوامهم - إلاّ من هدىٰ الله - بالسخرية والتكذيب والإستهزاء ، كما قال تعالى

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِّي فِي الأَوَّلِين * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون ﴾ [الزخرف ٦ - ٧]

وما أشد التكذيب والإستهزاء والسخرية على النفوس المؤمنة الأبية ، إنها أشد عليهم من وقع السيوف ومن السجون والتعذيب ولقد عبر عن هذا المعنى الشاعر العربي بقوله

وظلم ذوي القربىٰ أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

ولقد سألت عائشة - رضي الله عنها - النبي - ﷺ - فقالت له هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ .

فقال « لقد لقيتُ من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلاّ وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة ، قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك مَلَكَ الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني مَلَكُ الجبال ، فسلم عليَّ ، ثم قال : يا محمد ! إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال له رسول الله - ﷺ - « بل أرجو الله أن يخرج من أصلابهم ، من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[1].

---

(١) أخرجه البخاري ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، حديث (٣٢٣١) ومسلم (١٤٢١/٣) ، ٢٩ - باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ، حديث (١١١). =

وقـد ذكـرت كتب السيـرة بعض أجـويـة هؤلاء الساخـرة ومـواقفهم المـزرية ، وأن رسـول الله ـ ﷺ ـ عمـد إلى نفـر من ثقيف هم سـادة ثقيف وأشـرافـهـم ، وهـم أخـوة ثـلاثـة ، عـبـد يـا لـيـل ومـسـعـود ، وحبيب فجلس إليهم ، فـدعـاهم إلى الله وكلمهم لمـا جـاءهم له من نصـرة الإسلام والقيـام معه على من خـالفه من قـومـه ، فقـال أحـدهم هو يمـرط ثيـاب الكعبـة ، إن كـان الله أرسلك وقـال الآخـر : أمـا وجد الله أحداً أرسله غيرك؟ . وقال الثالث والله لا أكلمك أبداً ، لإن كنت رسـولاً من الله كمـا تقـول ، لأنت أعـظم خـطراً من أن أرد عليـك الكـلام ، ولإن كنت تكذب على الله ، ما كان ينبغي لي أن أكلمك

فقام رسول الله ـ ﷺ ، وقد يئس من خير ثقيف [1]

والشـاهـد من الحـديث والقصـة أن مـا يلقـاه الأنبيـاء من السخـريـة والإستهـزاء ومن أذى المشركين السفهـاء أشد على أنفسهم من كـل بلاء حتى من المعـارك الـطاحنـة التي تـزهق فيهـا الأرواح وتـراق فيهـا دمـاء أصحـابهم الزكية

فلقـد قُتـل يـوم أحـد من أصحـاب رسـول الله ـ ﷺ ـ أكثـر من سبعين شهيـداً[2] ، فيهم مصعب بن عمير[3] وحمـزة بن عبد المـطلب[4] عم رسـول

= وفي الحديث بيان دعـوة رسول الله وصبره في سبيلها وحلمـه على قومـه وانظر كيف استأنى بهم واستبقاهم من الهـلاك الماحق الـذي أشرفوا عليه املاً في الله ورجـاء أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً ، ويا لها من غاية نبيلة لا يعرفها إلاَّ من ذاق نعمة التوحيد وعرف مكانته

(1) البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٣٥). والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ط دار الكتب العلمية بيروت (ص ٣٥).

(2) قـال البخاري ـ رحمـه الله في ٦٤ ـ المغـازي ٢٦ ـ بـاب من قتـل من المسلمين يـوم أحد ، حديث ٤٠٧٨ حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا معاذ بن هشام ، قال : حـدثني أبي عن قتادة ، قال : « ما نعلم حياً من أحياء العرب أكثر شهيداً أغرَّ يوم القيـامة من =

الله ﷺ ، وشُجَّ رسول الله ـ ﷺ ـ وكُسرت رباعيته[1]

ولقي ما لقي هو وأصحابه من أذى المنافقين ، ولقي ما لقي قبل ذلك وهو بمكة وفي يوم بدر وغيرها من المشاهد ، ومع كل ذلك يرى أن أشد ما لقيه هو يوم الطائف ، لأنه لقي من السخرية والاحتقار ما لا تحتمله النفوس الأبية

ومن هنا يقول رسول الله ـ ﷺ ـ :

« أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل ، فالأمثل »[2].

= الأنصار. قال قتادة : وحدثنا أنس بن مالك ، أنه قتل منهم يوم أحد سبعون ، ويوم بئر معونة سبعون ، ويوم اليمامة سبعون » .

(٣) عن خباب ـ رضي الله عنه ـ قال : هاجرنا مع النبي ﷺ ، ونحن نبتغي وجه الله فوجب أجرنا على الله ، فمنا من مضى ـ أو ذهب ـ لم يأكل من أجره شيئاً ، كان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم يترك إلاَّ نمرة ، كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطيت رجلاه خرج رأسه ، فقال لنا النبي ﷺ : غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه الاذخر . . . » أخرجه البخاري ٦٤ ـ كتاب المغازي ٢٦ ـ باب من قتل يوم أحد حديث (٤٠٨٢) ومسلم كتاب الجنائز (٢/٧) مع شرح النووي وأحمد في المسند (١٠٩/٥) والنسائي (٣٢/٤).

(٤) قصة استشهاده في البخاري ٦٤ ـ كتاب المغازي ٣٢ ـ باب قتل حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ حديث (٤٠٧٢) ومسند أحمد (٣/ ٥٠٠ ـ ٥٠١).

(١) عن أنس رضي الله عنه قال : شج النبي ﷺ يوم أحد فقال :« كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم ؟ » فنزلت : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ [آل عمران : ١٢٩] . أخرجه البخاري ٦٤ ـ كتاب المغازي ٢١ ـ باب ليس لك من الأمر شيء ، بدون رقم ومسلم (١٤١٦/٣)، ٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير ٣٧ ـ باب غزوة أحد ، حديث ١٠٤ .

وفيه حديث سهل بن سعد برقم ١٠١ بلفظ : « جرح وجه رسول الله ﷺ ، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه » .

(٢) أخرجه الترمذي (٦٠٢/٤)، ٥٦ ـ باب ما جاء في الصبر على البلاء حديث (٢٣٩٨)=

فالأمثل ثم الأمثل هم الصالحون السائرون في منهاجهم في الدعوة إلى الله والداعون إلى ما دعوا إليه من توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده ، ونبذ الشرك بما سواه ، وينالهم من الأذى والبلاء مثل ما أصاب أسوتهم الأنبياء .

ومن أجل هذا ترى كثيراً من الدعاة يحيدون عن هذا المنهج الصعب ، والطريق الوعر ، لأن الداعي الذي يسلكه سيواجه أمه وأباه وأخاه وأحبابه وأصدقاءه وسيواجه المجتمع وعداوته وسخرياته وأذاه ، يحيدون إلى جوانب من الإسلام لها مكانتها ولا يتنكر لها من يؤمن بالله لكن هذه الجوانب ليس فيها تلك الصعوبة والشدة والسخرية والأذى خصوصاً في المجتمعات الإسلامية فإن سواد الأمة الإسلامية يلتفون حول هذا اللون من الدعاة ويحيطونهم بهالة من التبجيل والتكريم لا سخرية ولا أذى اللهم إلَّا إذا تعرضوا للحكام وهددوا كراسيهم فإنهم حينئذ يقمعونهم بكل شدة كأحزاب سياسية تناوىء الحكام وتهدد عروشهم ، والحكام في هذا الباب لا يحابون قريباً ولا حميماً ولا مسلماً ولا كافراً

وعلى كل حال نقول لهؤلاء الدعاة مهما شنشنوا وطنطنوا ومهما رفعوا أصواتهم باسم الإسلام اربعوا على أنفسكم فإنكم خرجتم عن منهج

= وابن ماجه (٢/١٣٣٤) ٢٣ ـ باب الصبر على البلاء حديث (٤٠٢٣)، والدارمي (٢/٢٢٨) حديث ٢٧٨٦ وأحمد في المسند (١/١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨٥) كلهم من طريق عاصم بن أبي النجود وهو صدوق له أوهام عن مصعب بن سعد قال الترمذي حديث حسن صحيح

وفي تصحيح الترمذي له نظر وكأنه لاحظ في الحكم شواهده فإن له شواهد

١ ـ عن أبي سعيد الخدري أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٣٤) ٣٢ ـ باب الصبر على البلاء حديث (٤٠٢٤) قال في الزوائد اسناده صحيح نقلاً عن محمد فؤاد.

٢ ـ من حديث فاطمة بنت اليمان أخرجه أحمد (٦/٣٢٩).

٣ ـ من حديث أبي هريرة أشار إليه الترمذي بقوله : « وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة » بعد إخراجه حديث سعد

الله وصـراطه المستقيم الـلاحب الذي مـرت به مـواكب الأنبيـاء وأتبـاعهم في الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين لـه ومهما نقلتم ورفعتم عقيـرتكم باسم الإسـلام فإنكم عن منهـج الأنبياء الـذي سَنَّه الله لنـاكبون ، ومهمـا بـذلتم من الجهود وجسمتم دعوتكم ومنهجكم فإنكم تتشاغلون بالوسـائل قبـل الغايـة وما أقل جدوى الوسيلة[1] إذا أضرت بالغاية وضخمت على حسابهـا ، بل يـا ويل هؤلاء الدعاة إن أصـروا على المضي فيما ابتـدعوه من منـاهج وحـاربوا منهـج الأنبيـاء في الدعـوة إلى توحيـد الله تحت شعارات بـراقة تخلب ألبـاب البلهاء والجهلاء بمنهج الأنبياء

إن الحديث عن دعوات الأنبيـاء إلى توحيـد الله ومنهجهم وما لاقـوا في سبيل ذلك من الأهوال والبلايا والمحن أمر لا يتسع له مجال كهذا ، ولسوف أقتصـر على عـرض دعـوات خمسـة منهم صلوات الله وسـلامـه عليهم وذلـك سيجعلنا على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاَّ هالك

١ ـ فأولهم : نوح ، أبـو البشر الثـاني ، وأول رسول إلى أهـل الأرض عاش هذا النبي العظيم عمـراً مديـداً ودهراً طـويلاً ، ألف سنـةٍ إلاَّ خمسين لبثها في دعوة قومه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له ، لا يكـل ولا يمل ، ليـلاً ونهاراً سراً وجهاراً

قال تعالى

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَـوْمِهِ أَنْ أَنـذِرْ قَوْمَـكَ مِن قَبْلِ أَن يَـأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَـالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَـذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُـدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُـوهُ وَأَطِيعُـونِ * يَغْفِـرْ لَكُمْ مِّن ذُنُـوبِكُمْ وَيُؤَخِّـرْكُمْ إِلَىٰ أَجَـلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَـلَ ٱللَّهِ إِذَا جَـآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْـلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَـزِدْهُمْ

---

(١) الحكم وسيلة إلى الدعوة إلى الله كما قال تعالى ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾

دُعَـآءِيَ إلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَـا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِـرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَبِعَهُـمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَـوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَـرُّوْا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَـاراً * ثُمَّ إِنِّي دَعَـوْتُهُمْ جِهَـاراً * ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْـرَرْتُ لَهُمْ إِسْـرَاراً * فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِـرُوا رَبَّكُمْ إِنَّـهُ كَـانَ غَفَّـاراً * يُرْسِـلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِـدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِـأَمْـوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَـل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَـل لَّكُمْ أَنْهَـراً * مَا لَكُمْ لاَ تَـرْجُونَ لِلَّهِ وَقَـاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْـعَ سَمَـٰوتٍ طِبَاقـاً * وَجَعَلَ ٱلْقَمَـرَ فِيهِنَّ نُـوراً وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِـرَاجاً * وَٱللَّهُ أَنْبَتَكُم مِنَ ٱلأَرْضِ نَبَـاتـاً * ثُمَّ يُعِيـدُكُمْ فِيهَـا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْـرَاجاً * وَٱللَّهُ جَعَـلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ بِسَاطـاً * لِتَسْلُكُـوا مِنْهَـا سُبُلاً فِجَاجاً * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِ وَٱتَّبَعُوْا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَـالُهُ وَوَلَـدُهُ إِلاَّ خَسَـاراً * وَمَكَرُوا مَكْـراً كُبَّاراً * وقَـالُـوا لاَ تَـذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلاَ تَـذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُـوَاعاً وَلاَ يَغُـوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْـراً * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيـراً وَلاَ تَزِدِ ٱلـظَّـٰلِمِينَ إِلاَّ ضَـلاَلاً * مِمَّـا خَطِيئَتِهِمْ أُغْـرِقُـوْا فَـأُدْخِلُوا نَـاراً فَلَمْ يَجِـدُوا لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنْصَاراً ﴾ [نوح ١ ـ ٢٥]

ماذا في دعوة هذا الرسول الكريم ، وقـد قص الله علينا خـلاصة دعـوته الكريمة التي استغرقت ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً ؟! .

إنها دعوة جادة إلىٰ توحيـد الله وعبادتـه وحده ، في جهـد دائب ما تـرك وسيلةً تُمْكِنُهُ إلاَّ استخدمهـا لاقناعهم بـدعوتـه ، سرًّا وجهـاراً وترغيبـاً وترهيبـاً ووعداً ووعيداً ، واحتجاجاً واستدلالاً بالأدلة العقلية والحسية ، من واقع أنفسهم وحياتهم ومما بين أيديهم من السمآء والأرض ، وما فيهما من آيات وعبر وكل ذلك لم يُجْـدِ فيهم نفعاً ولا دفعهم إلى استجـابة ، بـل أَصَرُّوا عـلى كفرهم وضـلالهم ، واستكبروا استكباراً

أصـروا على التشبث بأصنـامهم ومعبـوداتهم البـاطلة ، فكـانت النتيجـة لهذا الإصرار والإستكبار الهـلاك والدمار في الدنيا ، وفي الآخرة الخلود في

عذاب النار .

وهنا نتساءل لماذا يستمر هذا النبي العظيم كل هذه الآماد الطويلة ، ويبذل هذه الجهود الكبيرة ، دون كلل أو ملل يدعو إلى مبدأ التوحيد ؟!! .

ولماذا يمدحه الله ويثني عليه الثناء العاطر ، ويخلد ذكره ويجعله في عداد الرسل أولي العزم ؟ .

هل دعوة التوحيد تستحق كل هذه العناية والاكبار ؟ .

هل هذا المنهج وتحديد هذا المنطلق لهذا النبي الكريم مجانب للمنطق والحكمة والعقل ؟! أو أنه عين الحكمة ومقتضى المنطق الصحيح ، والعقل الواعي الرجيح ؟

لماذا يقره الله على سلوك هذا المنهج في الدعوة طوال ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً ويشيد به ويخلد اسمه وقصصه ، ويكلف أعظم الرسل وأعقل البشر أن يجعل منه أسوة في دعوته وصبره ؟ .

الجواب المنصف القائم على العقل والحكمة ، ومعرفة مكانة النبوة والثقة العظيمة فيها وتقديرها حق قدرها ، أن دعوة التوحيد ومحاولة القضاء على الشرك وتطهير أرض الله منه تستحق كل هذا وأنه عين الحكمة ومقتضى الفطرة والعقل ، وأن الواجب على كل الدعاة إلى الله أن يفهموا هذا المنهج ، وهذه الدعوة الإلهية العظيمة ، والمطلب الكبير ، فيكرسوا كل جهودهم وطاقاتهم لتحقيقه ونشره في أرض الله كلها ، وأن يتعاونوا ويتكاتفوا ويتحدوا ، ويصدق بعضهم بعضاً ، كما كان الرسل دعاة التوحيد يبشر سابقهم بلاحقهم ويصدق لاحقهم سابقه ويؤيد دعوته ويسير في مضماره .

يجب أن نعتقد أنه لو كان هناك منهج أفضل وأقوم من هذا المنهج لاختاره الله لرسله وآثرهم به ، فهل يليق بمؤمن أن يرغب عنه ويختار لنفسه منهجاً سواه ويتطاول على هذا المنهج الرباني وعلى دعاته ؟!!! .

٢ ـ وثانيهم أبو الأنبياء وإمام الموحدين الحنفاء ـ إبراهيم خليل الله ، الذي أمر الله سيد المرسلين ، وخاتم النبيين وأمته باتباعه والائتساء بدعوته والاهتداء بهديه ومنهجه[١]

قال تعالى

﴿ وَإِذْ قَالَ إبْراهيمُ لِأَبِيْهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبينٍ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَما أَفَلَ قال لاَ أُحِبُّ الآفِلِين * فَلَمَّا رَأَىٰ القَمَر بَازِغاً قَالَ هٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لإِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينِ * فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّي هٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام ٧٤ ـ ٧٩]

دعوة حارة قوية متدفقة إلى توحيد الله ، وإخلاص الدين له ونبذ الشرك ورفضه ، تبدأ بالأسرة وتمتد إلى الأمة تحارب الشرك بالأصنام ، وتزلزل الشرك بالكواكب

ويسلك خليل الله أَقْومَ الطرق في المناظرة والمحاجة ، لإقامة حجة الله ودحض الشرك وباطله وشُبَهِهِ

فالتعبير بالأصنام تحقير لآلهتهم المزعومة المصطنعة ، وتسفيه لأحلامهم ورصده للكواكب المذكورة واحداً تلو الآخر وهي تغيب وتأفل

---

(١) إشارة إلى قول الله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشرِكين ﴾ [النحل : ١٢٢]
وإلى قوله تعالى ﴿ قُلْ صَدَقَ اللّه فاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكين ﴾ [آل عمران ٩٥] .

عنهم ليأخذ من حالها البرهان الواضح على بطلان ما يزعمون من ألوهيتها فمن يرعاهم ويحفظهم ويدبر شؤونهم وشؤون هذا الكون حين غيابها وأفولها ، وإذن فعليهم أن يرفضوا هذه الآلهة المزعومة الباطلة ويكفروا بها ، وينفضوا أيديهم منها ، ويتجهوا إلى إلههم الحق ، الذي فطر السماوات والأرض ، والذي لا يغيب ولا يحول ويعلم جميع أحوالهم ومطلع على حركاتهم وسكناتهم ، ويرعاهم ويحفظهم ويدبر شؤونهم

حجج قوية يستمدها من الواقع الملموس والكون المنظور .

وقال تعالى

﴿ وَٱذْكُر فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يَٰأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيَ أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَٰأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَان لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا * يَٰأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَٰإِبْرَاهِيم لَئِن لَمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِياً * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً * فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم ٤١ ـ ٥٠]

دعوة حارة إلى التوحيد ، قائمة على العلم والمنطق والعقل وعلى الخلق القويم ، وتهدي الضال إلى الصراط المستقيم يقابلها تعصبٌ أعمىٰ يقوم على الهوى والجهل والعناد والمكابرة وإلاَّ فكيف يعبد ويخضع لمن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً؟!! إنَّ علم التوحيد ـ أيها القارىء ـ هو العلم الذي يعتز به جميع الأنبياء وبه يصولون على الباطل والجهل

والشرك .

فالجهل بهذا العلم - علم الأنبياء الهادي إلىٰ الحق والمنقذ من الضلال والشرك - هو الجهل المميت والسم القاتل الذي يقتل العقل والفكر .

﴿ يآ أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءني مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا ﴾

وبعد هذه الجولات القوية الواعية يقوم بها إبراهيم صلى الله عليه وسلم في ميدان الدعوة إلىٰ الله دعوة الأسرة والأمة التي أقام فيها علىٰ أبيه وقومه الحجج الدامغة واجه بهذه الدعوة العظيمة ذلك الحاكم الجبار الطاغية المتأله بكل قوة وشجاعة

قال تعالى

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلىٰ الَّذِي حآجَّ إبراهِيمَ في رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّه المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُميتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قال إِبْرَاهِيْمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِين ﴾ [البقرة : ٢٥٨]

لقد دعا إبراهيم - صلىٰ الله عليه وسلم - هذا الطاغية المتأله إلى توحيد الله والإيمان بربوبيته وألوهيته ، فطغىٰ واستكبر عن الإجابة إلى توحيد الله والتنازل عن دعوى الربوبية

فحاجَّه إبراهيم وناظره هذه المناظرة النيرة البراهين الواضحة المعالم قال ابراهيم ﴿ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ ﴾ أي هو المنفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة

فقال الغبي المتجبر ﴿ أَنَا أُحْيِي وأُميتُ ﴾ أي أقتلُ من أَردتُ قتله

وأستبقي من أردت استبقاءه .

وهـذا الجواب فيـه تمويـه وتضليل لـلأغبياء وحيـدة عن الجواب ؛ لأن قصــد إبـراهيم عليــه الصـلاة والســلام أن ربـه ينشئ الحيـاة في الإنسـان والحيـوان والنبات من العـدم ، ويردهـا إلى الأموات بقـدرتـه وإنـه هـو الـذي يميت الناس والحيوانات بآجالها بـأسباب ظـاهرة ربـطها وبغيـر أسباب ، فلمـا رآه إبراهيم يُمَوِّه ويـدجل تـدجيلاً ربمـا انطلى على الأغبيـاء والهمج ، قـال ـ ملزماً له بتصديق قوله ، إن كان كمـا يزعم : ـ ﴿ فَـإِنَّ اللَّه يَأْتِي بـالشَّمْسِ مِنَ المَشْــرِقِ فَـأْتِ بِهَــا مِنَ المَغْـرِبِ فَبُهِتَ الَّــذِي كَفَـرَ ﴾ أي وقف متحيــراً مشـدوهاً ، منقـطع الحجة قـد ألقم حجراً وأخـرس لسانـه وزهق باطله ، « إن الباطل كان زهوقاً »

وفي هـذا درسٌ لمن ألقىٰ السمع وهـو شهيد ، إنهـا دعوة إلى التـوحيد تمثل قمةَ الإخلاص والحكمة والعقـل ، وتأتي البيـوت من أبوابهـا وتنطلق من حيث أراد الله ، لا مصارعة على المُلك ، ولا منافسة على الحكم

ولـو كـان هـدف إبـراهيم عليـه الصـلاة والسـلام الـوصـول إلى الحكم لسلك منهجاً غير هذا المنهج ، ولوجد من يلتف حوله ويصفق له ولكن يأبىٰ الله وأنبيـاؤه وصالحـو الدعـاة من أتباع الأنبيـاء حقـاً في كـل زمـان ومكـان إلاَّ سُلوك طـريق الهـدايـة والـرشـاد وبيـان الحق وإقـامـة الحجـة على المكـابـرين والمعاندين

وقد قام إبراهيم عليه السـلام بهذا الـواجب العظيم على أكمـل الوجـوه وأتمها ، أقام الحجة على أبيه وقومه حكومةً وشعباً ، فلما رأىٰ منهم الإصرار علىٰ الشـرك والكفر والإقـامة على البـاطل والضـلال لجأ إلى الإنكـار والتغيير باليد والقوة

فمن أين يبـدأ بالتغييـر ومـا هـو الأسلوب الـرشيـد لتغيير هـذا الـواقـع

المظلم الجائم على أمته؟ أيثور على الدولة لأنها منبع الشرور والفساد ومصدر الشرك والضلال؟!! كيف لا والحاكم يدعي الربوبية ويصر عليها لماذا لا يدبر انقلاباً يطيح فيه بهذه الحكومة الكافرة وعلى رأسها جبار متأله وبذلك يقضي على كل ألوان الفساد والشرك ،وتقوم على أنقاضه الدولة الإلهية بقيادة إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟!! والجواب حاشا الأنبياء وحاشا نزاهتهم من سلوك هذه الطرق أو التفكير فيها فإنها طرق الظلمة والجهلة والسفهاء وطلاب الدنيا والملك .

إن الأنبياء دعاة توحيد ورواد هداية إلى الحق وإنقاذ من الباطل والشرك فإذا امتدت أيديهم إلى التغيير وهم أعلم الناس وأعقلهم فلا بد أن تبدأ بالقضاء على منابع الشرك والضلال الحقيقية وكذلك فعل إبراهيم الحليم الحكيم الرشيد البطل الشجاع

قال تعالى

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ ٱللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِآلِهَتِنَآ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً

وَلاَ يَضُـرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُـدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * قَـالُـوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُـرُوا آلِهَتَكُمْ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَـا يَا نَـارُ كُونِي بَـرْداً وَسَـلاَمَـاً عَلَىٰ إبْـرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِـهِ كَيْـداً فَجَعَلْنَـاهُمُ الأَخْسَـرِينَ ﴾ [الأنبيـاء ٥١ - ٧٠]

آتى اللّهُ إبراهيمَ رشده على علم بأنه أهل لذلك ،

هـذا النبي الحكيم الـرشيـد واجـه فسـاداً فيٰ العقيـدة ، وفسـاداً في الحكم أمةٌ انحط تفكيرهـا وضَلَّتْ عقولُهـا ، فعبدت الأَصنـام من الأخشاب والأحجار والكواكب ، وتحكمها حكومة فاسدة يقودها جبار متـأله فـأسلسـوا له القياد

فمن أين يبدأ بالإصلاح يا ترى ؟ .

أيبدأ بمصاولة الحاكم لأنه قطعاً يحكم بغير شـريعة الله ويحكم بقـوانين وتشريعات جاهلية ، لا شك في ذلك ، ويدعي الربوبية جهـاراً وحق التشريـع أو يبـدأ باصـلاح العقيدة عقيـدة الأمة وعقيـدة الحكومـة الجـاهليـة؟! القـرآن يحدثنا عن هذا النبي الرشيد إمام الأنبياء أنه بـدأ بإصـلاح العقيدة أي الـدعوة إلىٰ توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده ومحاربة الشـرك والقضاء عليـه وعلى أسبـابه واقتـلاعه من جـذوره ، فدعـاهم فعلاً إلىٰ تـوحيـد الله ونبـذ عبـادة مـا سـواه ، وجـادلهم في هـذا المجـال وجـادلـوه ، فـدفعهم بـالحجـج القـاهـرة والبـراهين الظاهـرة وجَرَّدَهم من كـل سلاحٍ من أسلحـة الحجة حتى ألجـأهم إلى الإعتراف بالـظلم والضلال والتعصب الأعمى والجمـود القاتـل على تقليد الآباء ﴿ قالوا وَجَدْنَا آبآءَنا لَهَا عَابِدين ﴾

فلمـا رأىٰ إبراهيم أهـواء جـامحـة وعقـولاً متحجـرة ، دَبَّر لهم مكيـدة ورسم لهم خطة حكيمة شجاعة لتحطيم آلهتهم ، وتم تنفيذ هـذه الخطة بكـل قوة وشجاعة وجُرأة

وأثـار هـذا العمـل البـطولي(١) الحكـومـة والشعب ضـده ، واستـدعـوه للمحـاكمـة العلنيـة ، ووجهـوا إليـه الإتهـام ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هٰـذَا بِـآلِهَتِنَـا يَـآ إِبْـرَاهِيْمُ ﴾ فـأجـابهم بـأسلوب تهكمي سـاخـر : ﴿ بَـلْ فَعَلَهُ كَبِيـرُهُمْ هٰـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُون ﴾

فكـان هذا الجـواب التهكمي المفحم كـالصـاعقـة العنيفـة هـوت على رؤوسهم المخبـولـة ﴿ ثُمَّ نُكِسُـوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِم لَقَـدْ عَلِمْتَ مَـا هٰؤلآءِ يَنْطِقُون ﴾

ثم لما أعوزهم سـلاح الحجة لجـأوا إلى القوة ، سـلاح كل عـاجز عن الحجـة في كـل زمـان ومكـان ﴿ قَـالُـوا حَـرِّقُـوهُ وانْصُـروا آلِهَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِين ﴾

ونجى الله خليله إبـراهيم ورد الله كيـد الكـافـرين الخـاسـرين في نحـورهم ﴿ قُلْنَا يَـا نَارُ كُـونِي بَرْداً وَسَـلَامـاً عَلَىٰ إِبْـرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِـهِ كَيْـداً فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِين ﴾

وكـان في نجاة إبـراهيم من تلك النار العـظيمة بعـد أن حَوَّلهـا الله برداً وسلاماً على إبراهيم آية عظيمة من أعظم آيات الله على نبوته وصدقه وصدق ما جاء به من التوحيد وبطلان ما هم عليه من الشرك والضلال

---

(١) هذا العمل البطولي العظيم ومـا سبقه من دعـوة حكيمة إلى التـوحيد ونبـذ الشرك في ميزان كثير من دعاة الإصلاح اليوم يعتبر من الاهتمامات بالقشور والتـوافه ، فـلا حول ولا قوة إلاّ بالله إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .
[لأنهم يرون أن البداءة بالدعوة يجب أن تكون بـاصلاح الحكم والسلطة لا بـاصلاح العقيدة ، وعلى هذا يكون ابراهيم وسائر الأنبياء قد أخطأوا منهاج الدعوة الصحيـح ـ الفوزان]

وكافأ الله إبراهيم عليه السلام على هذه الدعوة الحكيمة وعلى هذا الجهاد والتضحية الرائعة ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيْهَا لِلْعَالَمِين * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِين * وَجَعَلْنَاهُم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِم فِعْلَ الخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وإيتآءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾

* * *

٣ ـ ثالثهم يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم[1] الذي أنزل الله في شأنه سورة طويلة تقص لنا حياته الكريمة ومراحلها من طفولته إلى موته ، وكيف تقلبت به الأحوال ، وما واجه من صعاب ، فتلقاها بقوة النبوة وصبرها وحكمتها وحلمها

رأى يوسف عليه السلام فساد قصور الفراعنة في مصر وظلمها وعرف

---

(١) إشارة إلى حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ ـ أنه قال « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ».
أخرجه البخاري ٦٠ ـ كتاب الأنبياء باب ١٨ حديث (٣٣٨٢ ، ٣٣٩٠) وأحمد في المسند (٢/٩٦).
وإلى حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه سئل رسول الله ـ ﷺ ـ من أكرم الناس؟ فقال : « أتقاهم لله » قالوا ليس عن هذا نسألك قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال « فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ».
أخرجه البخاري ٦٠ ـ الأنبياء ، حديث (٣٣٨٣) ، والترمذي (٥/٢٩٣) التفسير ، باب ١٣ ، حديث (٣١١٦).
وأحمد في المسند (٢/٣٣٢، ٤١٦) كلاهما من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، بلفظ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ».

عقائد الأمة التي عاش فيها ، عرف ما فيها من فساد ووثنية تتخذ الأصنام والأبقار آلهة مع الله

قصة هذا النبي الكريم عليه السلام ـ طويلة نأخذ منها الإشارة إلى سجنه ودعوته ، قال تعالى

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قَالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرَ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ * قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرون * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيْمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبِيَ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الواحِدُ القَهَّارُ مَا تَعْبُدون مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُم وَآبَآؤُكُمْ مَآ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ لاَ تَعْبُدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّيْنُ القَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف ٣٦ ـ ٤٠] .

عاش هذا النبي الكريم ـ عليه السلام ـ في القصور وعرف مفاسد الحكم والحكام عن كثب ، وذاق من ويلاتهم كيداً وظلماً واضطهاداً وسجناً وعاش بين ظهراني أمة وثنية تعبد الأصنام والأبقار والكواكب فمن أين ينطلق للإصلاح ومن أين تكون نقطة البدء؟!

هل يبدأ في الدعوة إلى الله وهو مسجون ظلماً ويشاركه في السجن مظلومون مثله من أثارتهم وتهييجهم على الحكام الظلمة المستبدين؟! وهذا منطلق سياسي لا شك فيه ، والفرصة متاحة أمامه أو يبدأ بالدعوة من حيث انطلق آباؤه الكرام وعلى رأسهم إبراهيم خليل الله وإمام الدعاة إلىٰ توحيد الله ومن حيث انطلق جميع رسل الله؟! لا شك أن طريق الإصلاح الوحيد

في كل زمان ومكان هو طريق الدعوة إلىٰ العقيدة والتوحيد وإخلاص العبادة لله وحده

إذن فليبدأ يوسف من هذا المنطلق مقتدياً بآبائه الكرام ومعتزاً بعقيدتهم ومحقراً ومندداً بسخف المشركين واتخاذهم أرباباً من دون الله من الأصنام والأبقار والكواكب

وبعد هذا البيان الواضح والدعوة الصارخة إلىٰ التوحيد ونبذ الشرك يؤكد دعوته وحجته بقوله ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾[1] ثم يفسر هذه الحاكمية بتوحيد الله وعبادته وحده ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾

ويقول عن التوحيد ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ويصل يوسف عليه الصلاة والسلام إلى أعلىٰ منصب في هذه الدولة[2] وهو يدعو إلىٰ توحيد الله ويقيم على دعوته ونبوته البينات قال تعالى في بيان هذه الأمور :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ

---

(١) هذه الآية قاعدة أساسية من قواعد التوحيد كما بين الله ذلك على لسان يوسف عليه السلام ومن المؤسف جداً أن ترى كثيراً من دعاة الاصلاح السياسيين قد ابتعدوا بتفسيرها جداً عن مدلولها الأساسي إخلاص العبادة لله وحده إلى مدلول سياسي هو إقامة الدولة التي يزعمون أنها ستطبق شريعة الله في الأرض بالنيابة عنه وبالغوا في هذا الاتجاه حتى انسوا الناس المعنى الأصيل للآية ولا يفهمون منها إلاّ المعنى الجديد فلا حول ولا قوة إلاّ بالله وهكذا عاملوا كل أو معظم آيات التوحيد

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في الحسبة (ص ٧) « وكذلك يوسف الصديق كان نائباً لفرعون مصر ـ وهو وقومه مشركون وفعل من العدل والخير ما قدر عليه ، ودعاهم إلى الإيمان بحسب الامكان »

لَـــدَيْنَــا مَكِينٌ أَمِيْنٌ * قَــالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَــزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيْظٌ عَلِيمٌ ﴾
[يوسف ٥٤ ـ ٥٥]

وقال شاكراً لمولاه

﴿ رَبِّ قَــدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَـأْوِيــلِ الأَحَـادِيثِ فَــاطِــرَ السَّمـاوَاتِ والأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الـدُّنيــا والآخِـرَةِ تَــوَفَّنِي مُسْلِمـاً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحين ﴾ [يوسف ١٠١].

وقال الله في بيان دعوته وذلك على لسان مؤمن آل فرعون : ـ
﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بالبَيِّنَآتِ فَـمَـا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَآءَكُم بِـهِ حَتَّىٰ إذا هَلَكَ قُلْتُم لَنْ يَبْعَثَ اللّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذٰلِـكَ يُضِلُّ اللّه مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مرتاب ﴾ [غافر : ٣٤]

من فقـه سيرة يـوسف عليـه السـلام التي عـرضتهـا علينـا هـذه الآيـات الكـريمة أن الـدعوة إلىٰ التـوحيد أمـر لا بـد منـه ، وأن الشـرك لا هـوادة ولا مداهنة في محاربته فلا يجوز السكـوت عنه مهمـا كانت ظـروف الداعيــة إلىٰ الله بل لا يجوز لمسلم إطـلاقاً أن يحـابي ويداهن في أمـره وهذا يبين مكـانة العقيـدة وعظم شـأنها عنـد الله وعند أنبيـائه ورسله وأن الفـرق والبون شـاسـع جداً بينها وبين فروع الإسلام

فـلا يجوز أن يكـون المسلم خصوصـاً الداعيـة [أن يتولى منصبـاً يخل بـالعقيدة أو يتنـافى معها أو] أن يكـون كاهنـاً من الكهنة المشـركين أوسادنــاً لأصنامهم ، فإن فعل ذلك كان من المشركين الضالين

أمـا الجانب التشـريعي ، فـإن قـامت دولـة الإسـلام فـلا بدّ مـن تـطبيق شـريعة الله ، وإلاَّ ﴿ فَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمـآ أَنْـزَلَ اللّه فَـأُلٰئِـكَ هُمُ الكَـافِـرونَ ﴾ والكفـر حينئذ على مـا فَصَّله علماء الإسـلام من الصحابـة وغيرهم قـد يكـون

كفراً أكبر إذا كان يحتقر شرع الله ويستحل الحكم بغيره وقد يكون كفراً أصغر إذا كان يعظم شريعة الله ولا يستحل الحكم بغيرها لكن غلبه هواه فحكم بغير ما أنزل الله

أما إذا كانت دولة الإسلام غير قائمة ، فلا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها وللمسلم أن يتبوأ منصباً في دولة غير مسلمة شريطة أن يقوم بالعدل وأن لا يطيعهم في معصية الله ولا يحكم بغير ما أنزل كما فعل نبي الله يوسف . تبوأ منصب النيابة عن ملك كافر وما كان يحكم بشريعته ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الملك ﴾ وكان يقوم بالعدل بين الرعية ويدعوهم إلى توحيد الله

وفي هذا رد حاسم على من يهون من أمر عقيدة التوحيد ويجامل ويداجي في قضية الشرك الذي ملأ الدنيا وينظر إلى دعاة التوحيد وأعداء الشرك بعين الاحتقار والإزدراء ويربأ بنفسه ويشمخ بأنفه أن يهبط إلى مستوى دعاة التوحيد ـ وهو من دهاة السياسة وما أثقل على سمعه وقلبه أن يسمع أو يقول كلمة توحيدٍ أو شرك

لقد أوقع هذا النوع من الدعاة أنفسهم في هوة سحيقة في حين يظنون أنهم في أعلى القمم الشامخة

وهل يفلح قوم هذا موفقهم من دعوة الأنبياء إلاّ أن يتوبوا عما هم فيه إلى الله توبةً نصوحاً

* * *

٤ ـ رابعهم موسى كليم الله ، القوي الأمين ، نرى دعوته تتجه إلى التوحيد وتحمل في طياتها أنوار الهداية والحكمة

لقد تربى موسى ودرج في قصور أعظم طاغية متأله وعرف من ألوان الفساد والكفر والطغيان والظلم والاستبداد في قصور الحكم عن مشاهدة

واطلاع ما يصعب تصوره واحتماله ورأى ما نزل بقومه بني إسرائيل من استعباد واستذلال واستحياء النساء وقتل الأبناء ما فاق كل ظلم عرفته البشرية

قال تعالى

﴿ إِنَّ فِرْعَونَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِين ﴾ [القصص ٤] .

وكان قوم فرعون أهل شرك ووثنية دون شك

فكيف كان بدء دعوة موسى هل اتجهت إلى إصلاح عقيدة هذه الأمة الوثنية أو بدأت بالمطالبة بحقوق بني إسرائيل والمصارعة على الحكم والسعي الجاد في إقامة الدولة الإسلامية وانتزاع السلطة من أيدي الطغاة وعلى رأسهم فرعون المتأله ؟!

لقد كانت دعوة موسى كغيرها من دعوات آبائه وإخوته من الأنبياء لقد لقنه ربه أصل التوحيد واصطفاه لحمل رسالته والقيام بعبادته

قال تعالى

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسىٰ * إِذْ رَأَىٰ نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيْكُمْ مِنها بِقَبَسٍ أو أَجِدُ عَلَىٰ النَّارِ هُدىً * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالوادِي المُقَدَّسِ طُوَىً * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحىٰ * إِنَّني أَنَا اللَّه لآ إِلٰهَ إِلَّآ أَنَا فَاعْبُدني وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيها لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه ٩ ـ ١٥]

هكذا في مفتتح رسالته تُملى عليه عقيدة التوحيد ويكلف شخصياً أن

يقوم بها في واقع نفسه ويتمثلها في حياته

ثم يكلفه بالدعوة لهذا المبدأ العظيم فيرسله إلىٰ فرعون ويبين له طريق الدعوة وأسلوبها الحكيم الذي يواجه به فرعون قال تعالى

﴿ إذْهَبْ إلىٰ فِرْعَونَ إنَّه طَغىٰ * فَقُلْ هَلْ لَكَ إلىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إلىٰ رَبِّكَ فَتَخْشىٰ ﴾ [النازعات ١٧ ـ ١٩]

ويشد عضده بأخيه هارون مبالغةً في إقامة الحجة ويعلمهما الرفق واللين في الدعوة فإن ذلك أقرب الطرق إلى هداية من يريد الله هدايته ﴿ إذْهَبَا إلىٰ فِرْعَونَ إنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[طه ٤٣ ـ ٤٤].

فَنَفَّذا أمر ربهما ودعواه إلى الله قاصِدَينِ هدايته وتزكيته ليكون ممن يخشى الله ويتقي عواقب الشرك والظلم ، فلم يستجب لهذه الدعوة الهادئة الحكيمة فبرهن موسى على نبوته وصدق رسالته بآيات كبرى لكن الطاغية فرعون زاد طغياناً وتكذيباً ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلىٰ * فَأَخَذَهُ اللّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولىٰ ﴾ [النازعات ٢١ ـ ٢٥]

ازدياد طغيان فرعون وعسفه وظلمه
ومواجهة موسى وقومه هذا الطغيان بالصبر الجميل والتحمل

﴿ وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُم وَنَسْتَحْيِي نِسآءَهُمْ وَإنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُون ﴾ [الأعراف ١٢٧]

ما ذنب موسى وقومه في نظر هؤلاء المجرمين؟!! لا ذنب لهم إلاَّ

الدعوة إلى توحيد الله والثبات عليها والكفر بفرعون ومعبوداته

ثم ما موقف موسى من هذه الإنتهاكات البشعة والتي تجاوزت حدود الوحشية والهمجية؟!.

إنه الثبات على العقيدة والصبر الجميل والإستعانة بالله في مواجهة هذه الشدائد ثم انتظار العاقبة الطيبة والنصر نتيجة وثمرة حميدة لهذا الثبات والصبر.

﴿ قَالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ استَعِينُوا بِاللّهِ وَآصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُها مَنْ يَشآَءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين ﴾ [الأعراف ١٢٨]

ولما لم يبق أي أمل في إيمان فرعون وقومه واشتد البلاء على بني إسرائيل كان مطلب موسى الوحيد من فرعون أن يترك لبني إسرائيل حرية الخروج والهجرة إلى حيث يريد الله لهم إنقاذاً لهم من التعذيب والتنكيل ﴿ فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلِ مَعَنَا بَني إسرائيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلام عَلىٰ مَنِ اتَّبَعَ الهُدىٰ ﴾ [طه ٤٧]

إنها لدعوة سامية إلى توحيد الله فيها النور والحكمة وفيها الحرص على هداية المدعوّين وتزكيتهم وفيها أقوىٰ أنواع الصبر في تحمل الأذى وفي مواجهة الطغيان والكبرياء وفيها معالجة المواقف الصعبة بالحكمة والصبر مع قوة الأمل في الله في نصر المؤمنين وإهلاك الظالمين ، وفيها دروس وعظات لمن يريد بدعوته وجه الله ويريد إصلاح البشر وربطهم بالله وهدايتهم إلى صراطه المستقيم

٥ ـ والخامس سيد الأنبياء وخاتمهم محمد بن عبد الله صاحب أعظم رسالة وأكملها وأشملها ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ما ترك خيراً إلاّ دل أمته عليه ولا شراً إلاّ حذرها منه

بمـاذا بـدأ هـذا النبي العـظيم من مبـادىء الإسـلام؟ ومن أين انـطلقت دعوته ؟.

إنه عليه الصـلاة والسلام بـدأ بما بـدأ به كـل الأنبياء وانـطلق من حيث انطلقوا بدعواتهم من عقيدة التوحيـد والدعـوة إلى إخلاص العبـادة لله وحده ، من لا إلـه إلاَّ الله محمد رسـول الله ، وهل يُتصـور منه أو من أحـد من الأنبياء أن يبدأ بغير هذا الأصل العظيم أصل أصول الرسالات كلها

لقد بدأ رسـول الله ـ ﷺ ـ بهذا الأصـل فأول شيء طـرق مسامـع قومـه « قولوا لا إله إلاَّ الله ».

فقـال المستكبـرون منهم ﴿ أَجَعَـلَ الآلِهَـةَ إلهـاً وَاحِـداً إِنَّ هٰــذَا لَشَيْءٌ عُجَـابٌ * وَانْطَلَقَ المَـلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِـرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا الشَيْءُ يُرادُ ﴾ [ص ٥ ـ ٦]

واستمـر داعيـاً إلى هٰـذا المبـدأ الأسمىٰ والمـطلب الأعلى طيلة العهـد المكي من رسـالته ثـلاثة عشـر عامـاً لا يكل ولا يمـل صابـراً علىٰ كـل ألـوان الأذىٰ في سبيـل نشر هـذا المبـدأ فلم يفـرض عليـه من التشـريعـات وأركـان الإسلام إلاَّ الصلاة في السنـة العاشـرة من البعثة ، اللهم إلاَّ مـا كان يـأمر بـه قـومـه من معـالي الأخـلاق كصلة الـرحم والصدق والعفـاف ، ولكن محـور الدعوة وموضوع الصراع والخصومة إنَّما هو ذلك الأصل العظيم

لقـد كلف الله هذا النبي الكـريم ـ ﷺ ـ تكليفـاً خـاصـاً أن يقـوم بهـذا الأصل العظيم

قال تعالى

﴿ إِنَّـا أَنْزَلْنَـا إِلَيْكَ الكِتَـابَ بِالْحَقِّ فَـاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصـاً لَهُ الـدِّيْنَ ألا لِلّهِ الـدِّينُ الخَالِصُ وَالَّـذِيْنَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيَآءَ مَـا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَـرِّبُونـا إِلىٰ

اللّه زُلْفىٰ إنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بينَهُم فِيما هُم فِيْه يَخْتَلِفُون ﴾ [الزمر : ٢ ـ ٣] .

وقال تعالى :

﴿ قُل إنِّي أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْنَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أكُونَ أوَّلَ المُسْلِمينَ * قُلْ إنِّي أخَافُ إنْ عَصَيتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظيمٍ * قُلِ اللّهَ أعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِّيني ﴾ [الزمر : ١١ ـ ١٤]

﴿ قُلْ إنَّ صَلاَتِي وَنُسُكي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ العَالَمِين * لاَ شَرِيْكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأنَا أوَّلُ المُسْلِمين ﴾ [الأنعام : ١٦١ ـ ١٦٢]

كما أمره أن يقوم بدعوة الناس جميعاً إلىٰ تحقيق هذا المبدأ والنهوض به

قال تعالى ﴿ يآ أيُّها النَّاسُ آعْبُدوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً والسَّمآءَ بِنَاءً وَأنْزَلَ مِنَ السَّمآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلّهِ أنداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمون ﴾ [البقرة : ٢١ ـ ٢٣]

وقال تعالى

﴿ وَإلٰهُكُمْ إلٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة ١٦٣]

وقال تعالى

﴿ قُلْ يآ أيُّها النَّاس إنِّي رَسُولُ اللّهِ إلَيْكُم جَميعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوات وَالأرضِ لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ يحيي وَيُميت فَآمِنُوا بِاللّه وَرَسُولِهِ النَّبي الأُمِّي الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدون ﴾ [الأعراف ١٥٨]

والآيات في هذا كثيرة والذي قدمناه إنما هو مثال لمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى التوحيد

أما السنّة ففيها الشيء الكثير الدال على افتتاح رسول الله - ﷺ - دعوته بالتوحيد واختتامها بذلك واستمراره فيما بين ذلك طوال حياته - ﷺ -.

١ - فعن عمرو بن عبسة السلمي - رضي الله عنه - قال : كنت وأنا في الجاهلية ، أظن أن الناس على ضلالة ، وأنهم ليسوا على شيء ، وهم يعبدون الأوثان ، فسمعت برجل بمكة يُخبر أخباراً ، فقعدتُ على راحلتي ، فقدمت عليه ، فإذا رسول الله - ﷺ - مستخفياً ، جرءاء عليه قومه فتلطفت ، حتى دخلت عليه ، بمكة ، فقلت له ما أنت؟ فقال « أنا نبي » فقلت وما نبي؟ .
قال « أرسلني الله » . فقلت وبأي شيء أرسلك؟ .
قال « أرسلني بصلة الأرحام ، وكسر الأوثان ، وأن يُوَحَّدَ الله لا يشرك به شيء » فقلت : ومن معك على هذا؟ قال « حر وعبد »
قال ومعه يومئذٍ أبو بكر وبلال ممن آمن به » الحديث[1]

٢ - ولما وفد عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة المخزومي كلّما النجاشي ملك الحبشة فقالا له يُغريانه بالمسلمين المهاجرين إلى الحبشة -
« أيها الملك إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنت فسألهم النجاشي فقال ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟!!! فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له : أيها

(١) أخرجه مسلم (١/٥٦٩) ، ٦ - كتاب صلاة المسافرين ٥٢ - باب إسلام عمرو بن عبسة ، حديث (٢٩٤) - وأحمد في المسند (٤/١١٢).

الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، يأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلىٰ الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً
قال:فعدد عليه أمور الإسلام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه ، على ما جاء به فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً وحَرَّمنا ما حَرَّم علينا ، وأحللنا ما أَحَلَّ لنا فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلىٰ عبادة الأوثان ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وشقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك » الحديث [1]

٣ ـ وفي أسئلة هرقل لأبي سفيان في مدة صلح الحديبية عن حال رسول الله ﷺ قال لأبي سفيان ماذا يأمركم ؟ قال أبو سفيان قلت يقول « اعبدوا الله وحده ولا تُشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمر بالصلاة ، والصدق والعفاف ، والصلة »[2]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٠٢/١) ، (٢٩٠/٥) قال أحمد ثنا يعقوب (يعني ابن ابراهيم ابن سعد الزهري) ثقة ثنا أبي عن محمد بن اسحاق حدثني محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي أمية (يعني أم المؤمنين رحمها الله عنها) وهو اسناد صحيح إلاّ محمد بن اسحاق وقد صرح بالتحديث فحديثه حسن

(٢) أخرجه البخاري ١ ـ كتاب بدء الوحي باب ٧ ـ حديث ٦ وهو حديث طويل

فهـذه الأحـاديث تـوضـح لنـا دعـوة رسـول الله ﷺ في العهـد المكي والمدني

تعذيب أصحابه من أجل لا إله إلاَّ الله عقيدة التوحيد

لقـد عُـذِّبَ أَصحـابُ رسـول الله ﷺ أَشَـدَّ ألـوان التعـذيب من أجـل تمسكهم بالعقيدة وإخلاص العبادة لله وحده ونبذ الشرك والكفر .

* عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال

« أول من أظهـر الإسلام سبعـة رسـولُ الله ﷺ ، وأبـو بكـر وعمـار ، وأمه سمية ، وصهيب وبلال ، والمقداد

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله تعالى بعمه أبي طالب

وأما أبو بكر ، فمنعه الله بقومه

وأمـا سائـرهم ، فـأخـذهم المشـركـون ، وألبسـوهم أدراع الحـديـد ، صهـروهم في الشمس ، فمـا منهم من أحـد إلاَّ وأتـاهم على مـا أرادوا ، إلاَّ بـلالاً فإنـه هانت عليـه نفسه في الله ، وهـان على قومـه ، فـأعـطوه الـولـدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة ، وهو يقول

« أحد أحـد »[1]

وفي السيرة لابن هشام[2] « وكان أمية بن خلف يخـرجه (يعني بـلالاً) إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهـره في بطحـاء مكة ، ثم يـأمر بـالصخرة التكملة

انظر ٥٧

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٨٤/٣)، وصححه ، وذكره الـذهبي في سير أعـلام النبلاء (٣٤٨/١) وقال : وله اسناد صحيح ، وانظر في الاستيعاب (١٤٥/١ ـ ١٤٦) والحلية لأبي نعيم (١٤٩/١).

(٢) (٣١٨/١).

العظيمة ، فتوضع على صدره ، ثم يقول لا والله لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد » .

وتُعَذَّب سمية حتى الموت من أجل عقيدة التوحيد ، لا لأنها كانت زعيمة سياسية

فعن مجاهد قال

« أول شهيد في الإسلام سمية والدة عمار أمّا أبو جهل فطعنها بحربة في قبلها »[1]

وقال ابن سعد :« أَسْلَمَتْ قديماً بمكة ، وكانت ممن يُعذب في الله لترجع عن دينها ، وصبرت ، حتى مرّ بها أبو جهل يوماً ، فطعنها بحربة في قبلها ، فماتت »[2]

الاهتمام بعقيدة التوحيد في العهد المدني

وبعد أن هاجر رسول الله وأصحابه إلىٰ المدينة ، وقامت دولة الإسلام على كواهل المهاجرين والأنصار ، وعلىٰ أساس التوحيد ظل الاهتمام بالتوحيد على أشده والآيات القرآنية تنزل به والتوجيهات النبوية تدور حوله

* ولم يكتف رسول الله ﷺ بكل هذا ، فكان يبايع عليها عظماء الصحابة فضلاً عن غيرهم بين الفينة والفينة وكلما تسنح له فرصة للبيعة عليها

---

(١) الطبقات لابن سعد (٨/٢٦٤ ـ ٢٦٥) قال أخبرنا اسماعيل بن عمر أبو المنذر ، حدثنا سفيان الثوري ، عن منصور عن مجاهد قال : فذكره . وهو اسناد صحيح إلى مجاهد .

(٢) الطبقات لابن سعد (٨/٢٦٤).

قال تعالى

﴿ يآ أَيُّها النَّبِي إذا جآءَكَ المُؤْمِناتُ يُبَايِعْنَكَ علىٰ أنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْروفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة ١٢]

وهذه الآية وإن كانت في بيعة النساء فإن رسول الله ﷺ كان يبايع على مضمونها الرجال

فعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال : « كان رسول الله ﷺ في مجلس ، فقال « تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم) ـ والآية التي أخذت على النساء ﴿ إذا جآءَكَ المُؤْمِنَاتُ ﴾ فمن وفى منكم ، فأجره علىٰ الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعُوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه »[1] وساق ابن كثير عدداً من الأحاديث التي فيها أن رسول الله كان يبايع النساء بمضمون هذه الآية[2]

منها حديث عائشة ووحديث أميمةبنت. رقيقة[3] وحديث أم عطية[4]

← انظر ٥٥

---

(١) رواه البخاري ٢ ـ كتاب الإيمان باب ١١ ـ حديث ١٨ ، ٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار ٤٣ ـ باب وفود الأنصار ، حديث (٣٨٩٢) ، ومسلم ٢٩ ـ كتاب الحدود ١٠ ـ باب الحدود كفارات لأهلها ، حديث (٤١ ـ ٤٤) ، والنسائي (١٢٨/٧).

(٢) البخاري ٦٥ ـ كتاب التفسير تفسير سورة الممتحنة ٢ ـ باب إذا جاءك المؤمنات مهاجرات حديث (٤٨٩١) وابن ماجه (٩٥٩/٢) ٢٤ ـ كتاب الجهاد ٤٣ ـ باب بيعة النساء حديث (٢٨٧٤).

(٣) مسند أحمد (٣٥٧/٦) والنسائي كتاب البيعة باب بيعة النساء (١٣٤/٧). =

وحديث سلمى بنت قيس احدى خالات الرسول[1] وحديث رائطة بنت سفيان الخزاعية[2]

ثم قال : « وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة » ثم ساق حديث ابن عباس[3] وأحاديث أُخر .

أقول : وكذلك كان يتعاهد الرجال ، فمما يدل على ذلك حديث عبادة بن الصامت السابق .

ومن ذلك حديث عوف بن مالك الأشجعي - رضي الله عنه - قال كنا عند رسول الله ﷺ ، تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال « ألا تبايعون رسول الله؟ » ، وكنا حديثي عهد ببيعة ، فقلنا بايعناك يا رسول الله ! ثم قال: « ألا تبايعون رسول الله ؟ » فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ! ثم قال: « ألا تبايعون رسول الله ؟ » قال فبسطنا أيدينا وقلنا قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام نبايعك ؟! قال : « على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ،

=(٤) أخرجه البخاري ٦٥ - كتاب التفسير تفسير سورة الممتحنة ٣ - باب إذا جاءك المؤمنات يبايعنك حديث (٤٨٩٢) ومسلم كتاب الجنائز (٦/٢٣٨) شرح النووي

(١) مسند أحمد (٦/٣٧٩ - ٣٨٠، ٤٢٢ - ٤٢٣) وفي اسناده سليط بن أيوب قال الحافظ : مقبول وقال الذهبي في الكاشف (١/٣٨٨) وثق فهو حسن لشواهده .

(٢) مسند أحمد (٦/٣٦٥) .

(٣) في البخاري ٦٥ - كتاب التفسير ٣ - باب إذا جاءك المؤمنات يبايعنك حديث (٤٨٩٥) ومسلم ٨ - كتاب صلاة العيدين - ٨ - باب صلاة العيدين حديث (١) والحديث طويل وفيه : فقال : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ﴾ فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم قال حين فرغ منها « انتنَّ على ذلك ، فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها منهن : نعم يا نبي الله)

والصلوات الخمس وتطيعوا (وأسَرَّ كلمة خفية) ولا تسألوا الناس شيئاً »

فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه[1]

٢ ـ وكان يرسل دعاته ومعلميه وقضاته وأمراءه إلى الملوك والجبابرة والأقطار المختلفة بدعوة التوحيد

فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ خادم رسول الله ﷺ أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى[2] وقيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله ، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ[3]

يوضح ذلك نص كتابه إلى قيصر وأن هدفه الدعوة إلى التوحيد ونصه

---

(١) أخرجه مسلم ١٢ ـ كتاب الزكاة ٣٥ ـ باب المسألة للناس حديث ١٨ ، وأبو داود ٣ ـ كتاب الزكاة ، ٧٢ ـ باب كراهية المسألة حديث (١٦٤٢)، وأحمد (٢٧/٦)، والنسائي (١٨٦/١) وابن ماجة ٢٤ ـ كتاب الجهاد ، ٤١ ـ باب البيعة ، حديث (٢٨٦٧)

(٢) وانظر كتابه إلى كسرى ملك الفرس في البداية والنهاية (٣٦٩/٤) تعريب من كتابه إلى قيصر.

(٣) أخرجه مسلم ٣٢ ـ كتاب الجهاد ٢٧ ـ باب كتب النبي ـ ﷺ ـ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل حديث ٧٥ (١٣٩٧/٣)، والترمذي ، ٤٣ ـ كتاب الاستئذان ٢٣ ـ باب في مكاتبة المشركين ، حديث (٢٧١٦) من حديث أنس وأحمد (٣٣٦/٣) من حديث جابر، بلفظ « وكتب رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن يموت بخمس إلى كسرى وقيصر ، وإلى كل جبار »

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من محمد عبد الله ورسوله إلىٰ هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد ـ فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإن عليك إثم الأريسيين[1] و﴿ يا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُوْنِ اللّهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمون ﴾[2]

وعندما وصل الكتاب النبوي إلى قيصر أرسل إلى أبي سفيان بن حرب في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي مادَّ فيها رسولُ الله ﷺ ـ أبا سفيان ، وكفارَ قريش ، فأتوه وهم بابلياء فوجه أسئلة إلى أبي سفيان من جملتها قال قيصر :

« ماذا يأمركم؟ قال أبو سفيان قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركو ما يقول آباؤكم ، ويأمر بالصلاة ، والصدق والعفاف والصلة »[3]

---

(١) الأريسيون : الفلاحون ، ويقال لهم الاكارون ، والمراد اتباعه من الضعفاء وغيرهم ، لأنه صار سبباً في استمرارهم على الشرك ، وهذا عدل الله وسنته في الزعماء انهم يحملون أوزارهم ، وأوزار من يتبعونهم في الإنحراف عن التوحيد والحق ، ومحاربته ، قال تعالى : ﴿ وَلَيحملن أوزارهم ومن أوزار الذين يضلونهم ﴾ ، وقال ﷺ

« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الأثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئاً »

(٢، ٣) كلاهما حديث واحد أخرجه البخاري ١ ـ كتاب بدء الوحي ٧ ـ حديث ٦ ، وهو =

٣ ـ وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يجهز جيوشه للجهاد في سبيل الله لاعلاء كلمة التوحيد « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ».

ويرشد قواده وجنوده إلى البدء قبل القتال بدعوة الناس إلى التوحيد

فعن بريدة بن الحصيب ـ رضي الله عنه ـ قال كان رسول الله ـ ﷺ ـ « إذا بعث أميراً على سرية أو جيش ، أوصاه بتقوى الله في خاصة نفسه ، وبمن معه من المسلمين خيراً ، وقال « إذا لقيت عدوك من المشركين ، فادعهم إلى احدى ثلاث خصال أو خلال ، فإن أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك ، فاقبل منهم ، وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله ، وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم ، فإنكم لا تدرون ما يحكم الله فيهم ولكن أنزلوهم على حكمكم ، ثم اقضوا فيهم بعدما شئتم »(١)

ومثل حديث بريدة حديث النعمان بن مقرن المزني ـ رضي الله عنه ـ أشار إليه كل من مسلم وأبي داود وابن ماجه ، بقولهم قال علقمة ، فحدثت به مقاتل بن حيان ، فقال حدثني مسلم بن هيصم ، عن النعمان بن مقرن ، عن النبي ـ ﷺ ـ مثل ذلك

= حديث طويل اختصرناه وأحمد (١/٢٦٢).

(١) أخرجه مسلم ٣٣ ـ كتاب الجهاد ٢ ـ باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث حديث (٣) ، (١٣٥٦/٣ ـ ١٣٥٧). وأبو داود ، ٩ ـ كتاب الجهاد ٩ ـ باب في دعاء المشركين ، حديث (١٦١٢) (٨٣/٣)، والترمذي ، ٢٢ ـ كتاب السير ٤٨ ـ باب وضع النبي ـ ﷺ ـ في القتال ، حديث(١٦١٧) (١٨٢/٤) وابن ماجه ٢٤ ـ كتاب الجهاد ، ٣٨ ـ باب وصية الإمام ، حديث (٢٨٥٨).

٤ ـ وبعث معاذاً إلى اليمن أميراً وقاضياً ومعلماً ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ في وصيته

« إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلاَّ الله ـ وفي رواية إلى أن يوحدوا الله ـ واني رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوك لذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب[1] ، ولا يشك أنه كان يوصي كل دعاته وامرائه وقضاته بمثل هذه الوصية

٥ ـ وشرع الجهاد من أجل التوحيد وتطهير الأرض من فتنة الشرك قال تعالى ﴿ **وَقَاتِلُوهُم حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّيْنُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَوا فَلا عُدوانَ إلَّا عَلىٰ الظالِمين** ﴾. [البقرة ١٩٣]

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره (٢ : ١٩٤ ـ ١٩٥).

يقول تعالى ذكره لنبيه ـ ﷺ ـ :

« وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم ، حتى لا تكون فتنة يعني حتى لا يكون شرك بالله ، وحتى لا يُعْبَدَ دُونَهُ أحد ، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد ، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام

---

(١) أخرجه البخاري ٦٤ ـ كتاب المغازي ٦٠ ـ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ، حديث (٤٣٤٧) ، ٩٧ ـ كتاب التوحيد ١ ـ باب ما جاء في دعاء النبي ـ ﷺ ـ إلى توحيد الله تبارك وتعالى حديث ٧٣٧٢. ولفظ البخاري هنا «فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله ، فإذا عرفوا ذلك الحديث

ومسلم ١ ـ كتاب الإيمان ٧٥ ـ باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، حديث ٢٩ ، ٣٠ ولفظ الأخير : «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل فإذا عرفوا ذلك الحديث »

والأوثان قال قتادة حتى لا يكون شرك » وساق أسانيده بهذا التفسير إلى قتادة ومجاهد والسدى وابن عباس

وقال المراد بالدين الذي ذكره الله في هذا الموضع العبادة والطاعة لله في أمره ونهيه

قال ومن ذلك قول الأعشى.

هُوَ دَانَ الرِّبَابَ إذ كَرِهُوا الدِّ يــ ـــنَ دِراكاً بِغَزْوَةٍ وصِيال

ثم ساق إسناده إلى الربيع﴿ ويوكون الدين لله ﴾يقول حتى لا يعبد إلاّ الله ، وذلك لا إله إلاّ الله عليه قاتل رسول الله ﷺ وإليه دعا »

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله ، فمن قال لا إله إلاّ الله ، عصم مني ماله ونفسه إلاّ بحقه ، وحسابه على الله »[1]

وقال أمير المؤمنين عمر ـ رضي الله عنه ـ لأبي بكر الصديق خليفة رسول الله حتى عزم على قتال المرتدين بما فيهم مانعي الزكاة فقال له الفاروق ـ رضي الله عنه كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« أُمرت أن أُقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلاّ بحقه ، وحسابه على الله » —

فقال أبو بكر رضي الله عنه والله لأقاتلن مَنْ فَرَّقَ بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها »[2]

---

(١) أخرجه مسلم ١ ـ كتاب الإيمان ، باب ٨ ، حديث ٣٥ والترمذي ، ٤٨ ـ كتاب التفسير ، تفسير سورة الغاشية ، حديث (٣٣٤١) (٥/٤٣٩)، وابن ماجه ٣٦ ـ كتاب الفتن ، باب (١) ، حديث (٣٩٢٨).

(٢) البخاري، ٥٦ ـ الجهاد، ١٠٢ ـ باب دعاء النبي ـ ﷺ ـ الناس إلى الإسلام =

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« أُمرت أن أقاتل الناس ، حتى يقولوا لا إلـه إلاَّ الله ، فإذا قالوا لا إلـه إلاَّ الله عصموا مني دماءهم ، وأموالهم إلاَّ بحقها ، وحسابهم على الله » ثم قرأ ﴿ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (1)

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أُمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها ، وحسابهم على الله » (2)

ويلاحظ أن أحاديث عمر وأبي بكر وأبي هريرة وجابر قد اقتصرت على قضية التوحيد ، ولم تتعرض لغيرها

ولعل السبب في ذلك شدة اهتمام الرسول ـ ﷺ ـ بهذه القضية بحيث أنه يحدثهم بها المرة تلو المرة مقتصراً عليها ، تنبيهاً منه لهم على عظمتها وأهميتها وادراكاً منه صلوات الله وسلامه عليه أنهم يفهمون أن كل أُمور

= والنبوة ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، حديث (٢٩٤٦). ومسلم ـ كتاب الإيمان ، ٨ ، حديث (٣٣) . ، وأبو داود ٩ ـ الجهاد ١٠٤ ـ باب على ما يقاتل المشركون ، حديث (٢٦٤٠) وابن ماجه ٣٦ ـ كتاب الفتن ، باب الكف عمن قال : لا إله إلاَّ الله ، حديث (٣٩٢٧).

(١) أخرجه البخاري ٢٤ ـ كتاب الزكاة ١ ـ باب وجوب الزكاة ، حديث (١٣٩٩) ومسلم ـ كتاب الايمان ٨ ـ باب حديث (٣٣).

(٢) أخرجه البخاري ٢ ـ كتاب الإيمان ١٧ ـ باب ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم حديث (٢٥) ، ومسلم ، ١ ـ كتاب الإيمان باب ٨ حديث (٣٦).

الإسلام من مقتضياتها ومستلزماتها وحقوقها خصوصاً أركان الإسلام والإيمان

أقول وبسبب اقتصار الرسول - ﷺ - على ما يتعلق بالعقيدة كان استدلال عمر بهذا القدر وكان جواب أبي بكر - في تأييد موقفه - بقياس الزكاة على الصلاة « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة الحديث » ولو كان يحفظ ما رواه ابن عمر لاستدل به رأساً

ولو كان عمر يحفظ ما رواه ابنه لما اعترض على أبي بكر ولو كان الحاضرون وفيهم أبو هريرة يحفظون ما رواه ابن عمر لذكّروا الشيخين به

ولعلّ السر هو ما أشرنا إليه شدة اهتمام الرسول بالعقيدة وإشادته بها وكثرة حديثه عنها

ولما كان أبرز جانب وأهمه فيما جاء به الأنبياء من تعاليم ربانية هو توحيد الإلهية ، وكان هو في الواقع أعظم قضايا الصراع مع كل أعداء الأنبياء

وكان أبرز جانب من جوانب الباطل والضلال مما أعلن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عليه الحرب من جهة واستمات المشركون المكذِّبون من كل الأمم في الدفاع عنه من جهة أخرى هو عبادة الأصنام والأوثان ، وقبور الصالحين والأنبياء وتقديسها وتقديم القرابين لها وتعلق قلوب البشر حكاماً ومحكومين بها حباً ورجاءً وخوفاً وطمعاً وأملاً في شفاعتها لهم عند الله في قضاء مطالبهم ، وكان هذا اللون هو الشرك الأكبر الذي لا يُغفر كان لا بد - إلى جانب ما قدمناه من الحديث عن منهج الأنبياء خصوصاً في الحديث عن ابراهيم إمام الحنفاء ومحطم أصنام السخفاء - من ذكر طرفٍ من حرب رسول الله ﷺ - الشعواء لهذا الشرك الأكبر ممثلة في سحق هذه الأوثان فعلاً ، وفي سد كل ذريعة يستدرج بها الشيطان أولياءه من البشر إلى عبادتها واتخاذها أنداداً من دون الله باسم الآلهة أو الأولياء أو تحت أي شعارٍ

مضل

فمن تلك الحرب التي شنها القرآن ورسول مُنزِّل القرآن - ﷺ - قول الله تعالى

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ والعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَالِثَة الأُخْرىٰ * أَلَكُمُ الذَكَرُ وَلَهُ الأُنْثىٰ * تِلْكَ إذاً قِسْمَةٌ ضيزىٰ * إنْ هِيَ إلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُموهآ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ مَآ أَنْزَلَ اللّه بِهَا مِن سُلْطَانٍ إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَنَّ وَإنَّ الظَنَّ لا يُغْني . مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ [النجم ١٩ - ٢٣]

فهذا تحقير لمعبوداتهم وأي تحقير، وحربٌ عليها أي حرب وقول الله تعالى

﴿ فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلّه غَيْر مُشْرِكِيْنَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِن السَّمآءِ فَتَخْطَفُه الطَّيْرُ أَوْ تَهْوي بِهِ الرِّيحُ في مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج ٣٠ - ٣١]

وقول الله تعالى ﴿ يآ أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تفْلِحُونَ ﴾ [المائدة ٩٠]

وعن عمرو بن عبسة - رضي الله عنه - وقد تقدم حديثه وفيه

قلت الله أرسلك ؟ قال نعم قلت بأي شيءٍ أرسلك ؟ قال « بأن يُوَّحَد الله ، ولا يُشْرك به شيء ، وكسر الأوثان وصلة الرحم »[١]

وفي حديث جعفر بن أبي طالب (حتى بعث الله إلينا رسولاً منا

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٥٢)

نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان الحديث »[1].

وفي حديث أبي سفيان مع هرقل ملك الروم

« يقول - يعني الرسول ﷺ - اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم »[2]

وفي حديث أبي أمامة - رضي الله عنه - قال رسول الله - ﷺ - « إن الله بعثني - رحمة للعالمين وهدى للعالمين وامرني ربي عز وجل بمحق المعازف والمزامير ، والأوثان والصلب ، وأمر الجاهلية . . . . الحديث »

ولقد طاشت ألبابُ زعماء قريش وضاقت ذرعاً بهجوم رسول الله - ﷺ - على أوثانها سواء فيما أنزل عليه من قرآن أو في دعوته السرية والعلنية لأن هذا أمر لا هوادة فيه ، ودعوته الصادقة تقتضيه

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال

لما مرض أبو طالب ، دخل عليه رهط من قريش ، فيهم أبو جهل ، فقالوا إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ، ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول فلو بعثت إليه ، فنهيته ، فبعث إليه ، فجاء النبي - ﷺ - فدخل البيت فقال له أبو طالب أي ابن أخي ! ما بال قومك يشكونك ، يزعمون أنك تشتم آلهتهم ، وتقول وتقول؟!!

قال وأكثروا عليه من القول ، وتكلم رسول الله - ﷺ - فقال « يا عم ! إني أُريدهم على كلمة واحدة ، يقولونها تدين لهم بها العرب ويؤدي إليهم بها العجم الجزية » ففزعوا لكلمته ، ولقوله وقالوا كلمة واحدة؟!! نعم وأبيك عشراً ، فقالوا ما هي؟ وقال أبو طالب وأي كلمة هي يا ابن

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٥٣)

(٢) تقدم تخريجه (ص ٥٣)

أخي ، فقال « لا إله إلاّ الله ».

فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم ، وهم يقولون « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنَّ هذا الشيء عجاب »[1]

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال « اجتمعت قريش يوماً فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرَّق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا ما نعلم أحداً غَيْرَ عتبة بن ربيعة فقالوا أنت يا أبا الوليد ، فأتاه عتبة ، فقال يا محمد ! أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ فقال إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ وإن كنت تزعم أنك خير منهم ، فتكلم ، حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سخلةً قط أشأم على قومك منك ، فَرَّقْتَ جماعتنا وشتَّتَ أمرنا ، وعِبْتَ ديننا وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، والله ما ننظر إلاّ مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى

(١) مسند الإمام أحمد (٣٦٢/١) والترمذي ٤٨ ـ كتاب التفسير ، تفسير سورة (ص) حديث (٣٢٣٢) وفي اسناده يحيى بن عمارة ويقال ابن عباد ذكره ابن حبان في الثقات « تهذيب التهذيب (٢٥٩/١١) وقال الحافظ « مقبول » تقريب (٣٥٤/٢) وقال الذهبي وثق « الكاشف (٢٢٤/٣) ورواه ابن جرير (١٦٥/٢٣) باسناده إلى الأعمش ثنا عباد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ورواه من طرق إلى الأعمش عن يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ولم أقف لعباد على ترجمة وفي الاسناد ضعف وقد يحتمل التحسين . ملاحظة في مسند احمد عباد بن جعفر ولم أقف له على ترجمة وقد نص ابن كثير ان احمد رواه عن عباد غير منسوب انظر تفسير ابن كثير (٤٦/٧).

أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً وإن كان إنما بك انباءة فاختر أي نساء قريش فلنزوجك عشراً. فقال رسول الله - ﷺ - « فرغت؟ ».

قال نعم ، فقال رسول الله - ﷺ - :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ حتى بلغ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾.

فقال عتبة حسبك ! حسبك ! ما عندك غير هذا؟. قال « لا » فرجع إلى قريش ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلاّ كلمته ، قالوا : فهل أجابك ؟ قال لا والذي نصبها بنية ، ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود قالوا ويلك أيكلمك الرجل بالعربية ما تدري ما قال؟. قال لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة»[1].

تلك الحرب كانت حرباً كلامية ونفسية بالنقد اللاذع والتحقير

---

(١) المنتخب من مسند عبد بن حميد (ص ٢٠٨) رقم (١١٤١).
ومسند ابي يعلى الموصلي (ل ١٠١) كلاهما عن أبي بكر بن أبي شيبة حدثنا علي بن محمد عن الأجلح عن الذيال بن حرملة الأسدي عن جابر - رضي الله عنه - مرفوعاً قال ابن كثير في تفسيره (١٥١/٧) - بعد أن ساق الحديث باسناده عن عبد بن حميد وأبي يعلى « وقد ساقه البغوي في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح وهو ابن عبد الله الكندي وقد ضعف بعض الشيء عن الذيال . . .) لكن الحافظ قال فيه « صدوق شيعي من السابعة » تقريب (٤٦/١) وقال الذهبي وثقه ابن معنى وغيره وضعفه النسائي وهو شيعي » الكاشف (٩٩/١).
وشيخه الذيال قال الحافظ : عن جابر وابن عمرو القاسم بن مخيمرة وعنه فطر بن خليفة وحصين ، والأجلح وحجاج بن أرطاة ، وثقه ابن حبان » تعجيل المنفعة (ص ٨٤) وبقية رجال الاسناد ثقات

والسخرية ودمغ المشركين بالضلال والجهل مع إقامة الحجة عليهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة

وكان من آثار تلك الحرب ومن آثار تلك الدعوة والبيان أن هدى الله كثيراً من العرب من قريش وغيرهم ومن الأوس والخزرج وفتح الله بصائرهم وعرفوا حقيقة التوحيد ومكانته وعرفوا حقارة الشرك بالأوثان وغيرها وخطورته في الوقت نفسه على المشركين في الدنيا والآخرة

وهذه ثمار طيبة عظيمة كانت نتيجة لجهاد رسول الله ﷺ وأصحابه وصبرهم في ميدان الدعوة الحقة إلى الله وحملتهم المكثفة على الطواغيت والأوثان والأنصاب

ثم لما أصبح للمسلمين شوكة ودولة انتقل رسول التوحيد ﷺ إلى خطوة عملية جديدة هي سحق الأصنام وتحطيمها وإبادتها وتطهير الأرض منها إدراكاً منه لخطورتها فهي المصدر الأساسي والخطير على الأجيال البشرية من فجر تاريخها وإلى أن ينتهي تاريخها كما قال إمام الحنفاء ﴿ واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ﴾

فمن هنا قرر الرسول الأعظم محمد - ﷺ - القيام بتطهير الأرض من الأوثان وتسوية القبور لأنها قرينة الأصنام في إضلال البشرية

فعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال دخل النبي - ﷺ - مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً ، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد »[1]

---

(١) أخرجه البخاري ٤٦ - باب المظالم حديث (٢٤٧٧) ، و٦٤ - كتاب المغازي ٤٨ - باب أين ركز النبي - ﷺ - رايته يوم الفتح ، حديث (٤٢٨٧) و٦٥ - تفسير سورة =

وجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً لذى الخلصة من المدينة إلى خثعم فغزاها ، فعن جرير بن عبد الله البجلي - رضي الله عنه - قال « كان بيت في الجاهلية يقال له ذو الخلصة ، والكعبة اليمانية ، والكعبة الشامية ، فقال لي النبي - ﷺ - « ألا تريحني من ذي الخلصة ؟ »

فنفرتُ في خمسين ومائة فارس من أحمس ، فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده فأتيت النبي - ﷺ - فأخبرته ، فدعا لنا ولأحمس.وفي لفظ للبخاري « وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخثعم وبجيلة فيه نصب تعبد يقال له الكعبة »[2]

ولفظه في البخاري ومسلم وأحمد « ألا تريحني من ذي الخلصة ؟ ».

انظر إلى هذا التعبير النبوي ! فكأن وجود الأوثان يقض مضجعه ويقلقه عليه الصلاة والسلام فلا يقر له قرار ولا يجد راحة

وأعجب من واقع كثير من الدعاة اليوم يرون أمام أعينهم مظاهر الشرك فلا تحرك فيهم ساكناً ولا يحسبون لهذا الواقع المر حساباً ، بل الأدهى والأمر انهم يتذمرون ممن يُنكر ويتألم لهذا الواقع الجاهلي السيء

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة ، قال « لما فتح رسول الله - ﷺ - مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ، وكانت بها العزى ، وكانت على ثلاث

= الإسراء ١٢ - باب (وقل جاء الحق وزهق الباطل) ، حديث (٤٧٢٠) ومسلم ٣٢ - كتاب الجهاد ٣٢ - باب إزالة الأصنام من حول الكعبة ، حديث (٨٧) والترمذي ٤٨ - كتاب التفسير ١٨ - تفسير سورة الإسراء حديث (٣١٣٨) والإمام أحمد في المسند (٣٧٧/١).

(٢) البخاري ٦٤ - كتاب المغازي ٦٢ - باب غزوة ذي الخلصة ، أحاديث (٤٣٥٥ ، ٤٣٥٦ ، ٤٣٥٧)، ومسلم ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، ٢٩ - باب من فضائل جرير ابن عبد الله - رضي الله عنه - ، حديث (١٣٦ ، ١٣٧).
وأبو داود ٩ - كتاب الجهاد ، ١٧٢ - باب بعثة البشراء (٢٧٧٢) (٢١٥/٣). والإمام أحمد في المسند (٣٦٠/٤ ، ٣٦٢).

سمرات فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي ـ ﷺ ـ فأخبره ، فقال
« ارجع فإنك لم تصنع شيئاً »

فرجع خالد فلما أبصرته السدنة ـ وهم حجبتها ـ امعنوا في الجبل ، وهم يقولون يا عزى ، يا عزى فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فغمسها بالسيف حتى قتلها ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره فقال « تلك العزى »[1].

وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب ، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ أبا سفيان ليهدمها وقيل علي بن أبي طالب »[2]

وسألت ثقيف رسول الله ﷺ ، أن يدع الطاغية وهي اللات ، لا يهدمها ، ثلاث سنين فأبىٰ رسول الله ﷺ ، فما برحوا يسألونه سنة ، ويأبى عليهم ، حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومهم ، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى

وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يَسْلَمُوا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذرياتهم فأبى رسول الله ﷺ إلاّ أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها »[3]

---

(١) أخرجه النسائي في التفسير في الكبرى كما في تحفة الاشراف (٢٣٥/٤) أخبرنا علي ابن المنذر ، أخبرنا ابن فضيل ، حدثنا الوليد بن جميع ، عن أبي الطفيل ، لما فتح رسول الله ـ ﷺ ـ مكة » الحديث ، وهو إسناد حسن
وانظر تفسير ابن كثير (٤٢٩/٧ ـ ٤٣٠).

(٢) السيرة لابن هشام (٨٥/١ ـ ٨٦).

(٣) السيرة لابن هشام (٥٤٠/٢ ـ ٥٤١) وابن جرير (١٤٠/٣)، والبداية والنهاية (٣٢/٥) ط مكتبة المعارف وعيون الأثر لابن سيد الناس (٢٢٨/٢).
وزاد المعاد (٤٩٩/٣ ـ ٥٠٠)

* وعن عثمان بن أبي العاص أن رسول الله ﷺ أمر أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طاغيتهم »[1]

قال ابن جرير[2] : « وكانوا قد استقوا اسمها من اسم الله فقالوا « اللات » يعنون مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيراً ، وروى بأسانيده إلى قتادة ، وابن عباس ومجاهد وابن زيد ، أن اللاتّ بتشديد التاء رجل كان يلت السويق للحاج فمات فعكفوا على قبره فعبدوه » .

وقال الإمام البخاري حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا أبو الأشهب ، حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله﴿ اللات والعزى ﴾كان اللات رجلاً يلت سويق الحاج »[3].

* وعن ثمامة بن شفي قال كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس ، فتوفي صاحب لنا ، فأمر فضالة بن عبيد بقبره ، فسوي ثم قال سمعت رسول الله ﷺ ، يأمر بتسويتها »[4]

* وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - ، قال نهى رسول الله ﷺ أن يُجصص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يُبنى عليه »[5].

---

(١) ابن ماجه ٤ - كتاب المساجد ، حديث (٧٤٣) ، وأبو داود ٢ - الصلاة ، حديث (٤٥٠) ورجاله ثقات إلا محمدبن عبد الله بن عياض مقبول » .

(٢) في التفسير (٢٧/٥٨ ، ٥٩) ، والسيرة لابن هشام (٧٨ - ٨٩) وقد أطال النفس في الحديث عن أصنام العرب ومعبوداتها وبيان عبادتها .

(٣) في الصحيح ٦٥ - كتاب التفسير ، تفسير سورة النجم ٢ - باب ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾

(٤) أخرجه مسلم ١ - كتاب ٣١ - باب الأمر بتسوية القبر حديث (٩٢) - وأبو داود ١٥ - كتاب الجنائز ٧٢ - باب في تسوية القبور ، حديث (٣٢١٩) ، والنسائي (٤/٧٢ - ٧٣)

(٥) أخرجه مسلم ١١ - كتاب الجنائز ٣٢ - باب النهي عن تجصيص القبور والبناء عليها =

* وعن أبي مـرثـد الغنـوي ـ رضي الله عنـه ـ قـال سمعت رسـول الله ﷺ يقول « لا تصلوا إلى القبور ، ولا تجلسوا عليها »[1].

* وعن أبي هـريرة ـ رضي الله عنـه ـ قال قـال رسول الله ﷺ « اللهم لا تجعـل قبري وثناً يُعبد اشتـد غضب الله على قوم اتخـذوا قبـور أنبيـائهم مساجد »[2]

وتستمر هذه العنـاية النبـوية الـواعية ، لأخـطار الأوثان والقبـور إلى آخر لحظة من لحظات حياة الرسول الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه فعن جنـدب بن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنـه ـ قـال سمعت رسـول الله ﷺ ـ قبل أن يموت بخمس وهو يقول

« إني أبـرأ إلى الله أن يكـون لي منكم خليـل ، فـإنَّ الله قـد اتخـذني خليـلاً كما اتخـذ ابراهيم خليـلاً ، ولو كنت متخـذاً من أمتي خليلاً لاتخـذت أبـا بكـر خليـلاً ، ألا وإن من كـان قبلكم كـانـوا يتخـذون قبـور أنبيـائهم وصـالحيهم مسـاجـد ، ألا فـلا تتخـذوا القبـور مسـاجـد ، فـإني أنهـاكم عن ذلك »[3]

= حديث (٩٤) وأبو داود ١٥ ـ كتاب الجنائز ، ٧٦ ـ باب في البنـاء على القبر حـديث (٣٢٢٥)، والنسائي (٤/٧٢).

(١) أخرجه مسلم ١١ ـ كتاب الجنائز . ٣٣ ـ باب النهي عن الجلوس على القبـر حديث (٩٧، ٩٨) وأبو داود، ١٥ ـ كتاب الجنائز ٧٧ ـ بـاب كراهيـة القعود على القبـر ، حديث (٣٢٢٩).

(٢) مالك في الموطأ ٩ ـ كتاب قصر الصلاة في السفر ٢٤ ـ بـاب جامـع الصلاة حـديث ٨٥ مـرسلاً وأحمـد (٢/٢٤٦) ثنـا سفيـان عن حمزة بـن المغيـرة عن سهيـل بن أبي صـالح عن أبيـه عن أبي هريـرة ـ رضي الله عنه ـ مـرفوعـاً وابن سعـد في الـطبقـات (٢/٢٤٠ ـ ٢٤١) من طـريق مـالـك بـه ، (٢/٢٤١ ـ ٢٤٢) من طـريق سفيـان عن حمزة به وأبو نعيم في الحلية (٣١٧/٧) من طريق سفيان عن حمزة به

(٣) أخـرجه مسلم ٥ ـ كتـاب المسـاجـد ٣ ـ باب النهي عن بنـاء المسـاجـد على القبـور =

وعنـد احتضاره وبعـد اختياره للرفيق الأعلى كـان شغله الشـاغـل خـطر فتنـة القبور على هـذه الأمة التي جهـل أكثرهـا قدر هـذه الاهتمامـات النبويـة وجهلت خطر هذه الفتنة الماحقة

* وعن أسـامة بن زيـد ـ رضي الله عنهمـا ـ أن رسـول الله ﷺ قـال في مرضه الذي مات فيه

« ادخلوا عَلَيَّ أصحـابي » فدخلوا عليـه وهـو متقنـع ببـردة معـافـري[1] فكشـف القنـاع ، فقـال « لعن الله اليهـود والنصـارى اتخـذوا قبـور أنبيـائهم مساجد »[2].

والآن نتساءل إذا كانت دعـوات الأنبياء عليهم الصـلاة والسلام ـ تحمـل في طياتها كل خير ، وتحذر من كل شـر ، فما بـالنا نـرى فيما قص الله علينـا في كتـابه وفي دراستنـا لسنة وسيـرة نبينا محمـد ﷺ أن دعواتهم إلى التـوحيد ومحاربة الشـرك ومظاهـره وأسبابـه ووسائله قـد أخذت مسـاحة كبيـرة جداً من دعواتهم واستغرقت زمناً طويلاً من حياتهم حتى لكـأنما كـان هذا الجـانب هو شغلهم الشاغل

وأما موقفهم من الحكـام الطغـاة المستبدين ؟!! فـإنه يـأتي في المرتبـة الثـانية لأن الشـرك أعـظم الـظلم ، ولأن مقصـدهم هـو تعبيـد النـاس لـربهم

= حديث (٢٣) ، والنسائي في الكبرى ، كما في تحفة الاشراف (٢/٤٤٣) وأبو عوانـة (١/٤٠١) والـطبـراني (٢/١٨٠) حـديث (١٦٨٦). وابن سعـد في الـطبقـات (٤/٢٤٠) مختصراً

(١) برود باليمن منسوبة إلى معافر وهي قبيلة باليمن « النهاية لابن الأثير »

(٢) رواه أحمـد في مسنده (٥/٢١٤) والـطبـراني في الكبيـر (١/١٢٧) حـديث ٣٩٣ ، (١/٦٣١) حـديث (٤١١) والطيـالسي في مسنده (٨٨) حـديث (٦٣٤) وفي اسناده قيس بن الربيع الأسدي قال الحافظ : « صدوق تغير الماكبر وادخل عليـه ابنه مـاليس من حديثه ، وفيه كلثوم الخزاعي قال فيه الحافظ « مقبـول » لكنه مـع ذلك يصلح في الشواهد .

سبحانه وتعالى ، وليس إزالة سلطان وإقامة سلطان غيره وكفى

قال تعالى

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشآء ﴾ .

﴿ إِنَّهَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النارُ ﴾ .

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .

فالعقل والحكمة والفطرة تقتضي إذاً أن يُبْدَأَ بمحاربة خطر الشرك ، وأن تستمر دعوات الأنبياء وأَتْبَاعِهِم على محاربته ما بقيت منه بقية أو بقي له شكل أو مظهر .

فإذا أحاطت بأمةٍ مشاكلُ عقائدية شرك يدمر عقيدتها ومشاكل اقتصادية ومشاكل سياسية ، فبأيها تبدأ المعالجة الحكيمة ؟!

أما الأنبياء فلم يبدأوا إلاَّ بمعالجة مشكلة العقيدة بكل قوة ، والبدء بمعالجة الأمر الأخطر أمر يتفق عليه كل عقلاء البشر . فمثلاً لو رأى عاقل ثُعباناً وَنَمْلَة يدبان إلىٰ إنسان لأملى عليه عقله أن يبادر إلى دفع الثعبان أو قتله لشدة خطره على هذا الإنسان ولا يمكن أن يلقي بالاً للنملة ولا لِألف نملة

ولو رأى عقلاء أسداً هصوراً وجماعة من الفئران تهجم عليهم لحملوا حملةً واحدةً لصد هجوم الأسد ولتناسوا الفئران ولو كان معها جماعة أخرى من الضفادع

ولو أن مسافرين انتهى بهم السير إلىٰ طريقين لا خيار لهم من سلوك أحدهما

الأول فيه براكين تقذف بلهبها ونيران تلتهم أشجارها وأحجارها

والثاني فيه الأشواك والرمضاء وأشعة الشمس اللاهبة لما اختار عقلاؤهم إلاّ سلوك الطريق الثاني

لنأخذ الآن أشد المفاسد ـ أعني المفاسد السياسية والاجتماعية والاقتصادية ـ وأشدها فساد الحكم لنوازنها بفساد العقيدة فهل هما في ميزان الله وميزان الأنبياء سواء ، أو أن أحدهما أشد خطراً وأدهى وأمرّ عاقبة؟!!

ففي ميزان الله وميزان أنبيائه أن أشدها خطراً وأجدر بالتركيز عليه على مر الدهور والعصور وفي كل الرسالات إنما هو الشرك ومظاهره الذي لا يضاهيه فساد مهما عظم شأن هذا الفساد

وبناء على هذا نعود فنقول إنَّ بدْءَ جميع الأنبياء باصلاح الجانب العقدي ومحاربة الشرك ومظاهره هو مقتضى الحكمة والعقل وذلك للأمور الآتية

أولاً أن المفاسد المتعلقة بعقائد الناس من الشرك والخرافات وأنواع الضلال أخطر آلاف المرات من المفاسد المترتبة على فساد الحكم وغيره ، فإن لم نقل هذا ونعتقده سَفَّهْنَا مِنْ حيث لا نشعر جميع الأنبياء ، ونعوذ بالله من الضلال

إن هذه المفاسد تشمل الحاكم والمحكوم ، فالحكام أنفسهم في كل زمان ومكان ـ إلاَّ المؤمنين منهم ـ يخضعون للأصنام والأوثان والقبور ويقومون بتشييدها وحمايتها وعبادتها وتقديم القرابين لها ، ويعتقدون أن لها سلطة غيبية قاهرة فوق سلطانهم المادي ، فهي تضرهم وتنفعهم بذلك السلطان الغيبي في زعمهم وبتلك القوة القاهرة الخفية أو على الأقل تشفع لهم عند الله في تخفيف مآربهم

وأوضح مثال لخضوع الحكام للأوثان ذلك الطاغية المتأله فرعون الذي قال متبجحاً: ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾

وهذا النمرود ملك الكلدانيين الذي ادَّعىٰ الربوبية يأمر بإحراق إبراهيم عليه السلام عندما حطم الأصنام أخذاً بثأر هذه الأصنام لأنها آلهته

وهؤلاء ملوك الهند والفرس يعبدون الأوثان والنيران ، وملوك الرومان في الماضي وحكام أوروبا وأمريكا في الحاضر يعبدون الصلبان والصور .

وكم من حكام المسلمين في الماضي والحاضر مَنْ فُتِنَ بالأموات وشاد عليهم القبور وتعلق بها قلبه حباً ورجاءً وخوفاً وارتكبوا ما خشيه رسول الله على هذه الأمة وحذر منه

* * *

ومن هنا يتضح لك جدية منهج الأنبياء وأحقيته، ويتضح لك أهمية مواقف الرسول الحاسمة من الأوثان والقبور كما يتضح لك حكمة إبراهيم وعمق فكره وبعد نظره حينما أطلقها صيحة مدوية تجلجل في الآفاق والأجيال

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّه مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيْمٌ ﴾ [إبراهيم ٣٥ - ٣٦]

فترى إبراهيم - وهو على غايةٍ من الحق والصواب - يجأر إلى الله من مخاطر الأصنام ولا يجأر إليه من مخاطر الحكام على جسامة فسادهم وخطرهم

ثانياً إن الله ما أرسل الرسل إلَّا ليعلموا الناس الخير وينذروهم بطش الله والشر

قال الله تعالى

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدةً فَبَعَثَ اللّهُ النَبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ﴾ [البقرة ٢١٣]

وقال تعالى ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المُرْسَلِيْنَ إلاَّ مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِين فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونِ ﴾ [الأنعام ٤٨]

وقال تعالى ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الكهف ٥٦]

وقال تعالى
﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللّه حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء ١٦٥]

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ولا أحد أَحب عليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين »[1]

وقال تعالى ﴿ فَهَلْ عَلَىٰ الرُّسُلِ إلاَّ البَلاَغُ المُبين ﴾ [النحل ٣٥]

وقال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَىٰ الرَّسُولِ إلاَّ البَلاَغُ المُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤]

وقال تعالى
﴿ وإنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَىٰ الرَّسُولِ إلاَّ البَلاَغُ المُبِيْنُ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري ٩٧ ـ كتاب التوحيد ٢٠ ـ باب قول النبي ـ ﷺ لا شخص أغير من الله ، حديث (٧٤١٦)، ومسلم ١٩ ـ كتاب اللعان حديث (١٧) (٢/١١٣٦)، وأحمد في المسند (٤/٢٤٨) والدارمي (٢/٧٣)، حديث (٢٢٣٣).

وهذه مهمة الإنذار والتبشير والإبلاغ مهمة جليلة عظيمة نبيلة ، يكفيها عظمة ونبلاً أنها مهمة الأنبياء وتتناسب مع مكانتهم الرفيعة فإنها أشق وأعظم ما يتحمله البشر وورثتهم من الدعاة الصادقين المخلصين السائرين في منهاجهم ، ولهذا قال رسول الله ﷺ « أشد النَّاسِ بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل » وقد ذكرنا سلفاً مدى ما يواجه الداعية إلى التوحيد من المشقة ، وكيف لا يستطيع غيرهم أن يجول في هذا الميدان

ثالثاً أن الله سبحانه وتعالى ، لم يكلفهم بإقامة دول وإسقاط أخرى وذلك في غاية الحكمة ، لأن الدعوة إلى إقامة دولة تلوح فيها المطامع لطلاب الدنيا وطلاب الجاه والمناصب وأصحاب الأغراض والأحقاد وأصحاب التطلعات والطموحات فما أسرع ما تستجيب هذه الأصناف للدعوة إلى قيام دولة يرون فيها تحقيق مآربهم وشهواتهم ومطامعهم
لمثل هذه الإعتبارات ـ والله أعلم ـ وغيرها مما يعلمه الله الخلاق العليم الحكيم ابتعدت دعوات الأنبياء ومناهجهم عن استخدام هذا الشعار البراق الملوح أو المصرح بالأطماع والشهوات العاجلة وسلكت منهجاً حكيماً نزيهاً شريفاً ينطوي على الابتلاء والاختبار فيتبعهم ويؤمن بهم كل صادق مخلص متجرد من كل المطامع والأغراض الشخصية ، لا يريد بإيمانه وتوحيده وطاعة رسل الله عليهم الصلاة والسلام إلَّا الجنة ومرضاة ربه ، ولا يخاف إلَّا من غضبه وأليم عقابه ، ولهذا لا يتبعهم في الغالب إلَّا الفقراء والمساكين والضعفاء قال تعالى ـ حكاية عن قوم نوح ـ :

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون ﴾ [الشعراء ١١١]

وقال عن قوم صالح ﴿ وَقَالَ المَلأُ الَّذِيْنَ اسْتَكبَرُوا مِنْ قَومِهِ لِلَّذِيْنَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِيْنَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُون ﴾ [الأعراف ٧٥ ـ ٧٦]

وجاء في أسئلة هرقل لأبي سفيان « فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ »

قال أبو سفيان فقلت : بل ضعفاؤهم .ثم قال هرقل « وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أنَّ ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل »

فالدعوة إلى إقامة دولة أسهل بكثير وكثير ، والاستجابة لها أسرع ، لأن أكثر الناس طلاب دنيا وأصحاب شهوات

ولما ذكرنا من الأسباب والعقبات والصعاب في طريق دعوات الرسل نجد أنه لا يتبعهم إلاَّ القليل ، فنوح لبث ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾ يدعو إلى الله ومع ذلك ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود ٢٤]

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال قال رسول الله ﷺ « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب »[1]

وهذا ابراهيم الخليل قامع المشركين بالحجج الدامغة والبراهين ، قال الله في شأنه وشأن من آمن به

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت ٢٦].

---

(١) أخرجه البخاري ٧٦ ـ كتاب الطب ١٧ ـ باب من اكتوى أو كوى غيره حديث (٥٧٠٥)، ومسلم ١ ـ كتاب الايمان ٩٤ ـ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ، حديث (٣٧٤). وأحمد في المسند (١/٢٧١).

وهذا لوط يقول الله في نجاة من معه من العذاب ولعلهن بناته فقط

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيْهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيْهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمين ﴾ [الشعراء ٣٥ ـ ٣٦]

ولا يغض ذلك من منازل الأنبياء مثقال ذرة بل هم في أعلى المنازل وهم أنبل الناس وأجل الناس وأكرمهم وفوقهم في كل شأن في الرجولة والشجاعة والفصاحة والبلاغة والبيان والنصح والتضحية

وقد قاموا بواجبهم على أكمل الوجوه من الدعوة إلى التوحيد والتبليغ والتبشير والإنذار ، فإذا قل اتباعهم أو لم يتبع بعضهم أحد فالعيب كل العيب على الأمم التي رفضت الاستجابة لدعوتهم لأنها في نظرهم ـ لا تحقق لهم أغراضهم الدنيئة

وقد يهدي الله قوم نبي من الأنبياء فيستجيبون له أو كثير منهم فتكون لهم دولة ، ثمرة طيبة ، لإيمانهم وتصديقهم وأعمالهم الصالحة ، فيقومون بواجبهم من الجهاد لإعلاء كلمة الله وتطبيق التشريعات والحدود وغيرها من الأمور التي شرعها الله لهم كما حصل لنبينا محمد ﷺ ـ وأصحابه الكرام توج الله إيمانهم وعملهم الصالح وصبرهم الجميل على بغي المشركين وتطاولهم بأن نصرهم ، وأظهر دينهم ، ومكن لهم في الأرض كما قال تعالى

﴿ وَعَدَ اللّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِم وَلَيُمَكِنَنَّ لَهُمْ دِيْنَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾

ولقد عُرض على رسول الله الملك بمكة فرفض إلاَّ المضي في الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك والأوثان أرسلت قريش ـ لما أقلقها أمر رسول الله ـ ﷺ ـ عتبة بن ربيعة فأتى رسول الله ـ ﷺ ، فقال

« يـا ابن أخي إنـك منـا حيث قـد علمت من السـطعـة في العشيـرة ، والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمـر عظيم ، فـرقت به جمـاعتهم ، وسفهت بـه أحـلامهم وعبت بـه آلهتهم ، ودينهم ، وكفَّـرت بـه من مضى من آبائهم ، فاسمع مني اعرض عليـك أموراً تنـظر فيها لعلك تقبـل منا بعضهـا ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ قل يا أبا الوليد اسمع ».

قال يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريـد بما جئت بـه من هذا الأمـر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنـا أموالاً ، وإن كنت تـريد بـه شرفـاً سَوَّدناك حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريـد به مُلكـاً مَلَّكناك علينـا وإن كـان هذا الـذي يأتيـك رئيًّا تـراه لا تستطيـع رده عن نفسك طلبنـا لك الـطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئـك منه فـإنه ربمـا غلب التابـع على الرجـل حتى يداوى منه أو كمـا قال حتى إذا فـرغ عتبة ، ورسـول الله ـ ﷺ ـ يستمع منـه ؛ قـال « أفرغت يـا أبا الـوليد ؟ » قـال نعم قـال: « فـاستمـع مني » قـال افعل

قال « بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ تَنْزِيـلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الـرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآناً عَرَبياً لِقَومٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَـذِيراً فَـأَعْرَضَ أَكْثَـرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُون ﴾.

ثم مضى فيها رسول الله ـ ﷺ ـ يقرؤها عليه

فلما سمع عتبة أنصت لها وألقىٰ يديه خلف ظهـره معتمداً عليهـا يسمع منه ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال

قد سمعت يا أبا الوليـد ما سمعت ، فـأنت وذاك فذهب عتبـة إلى قـريش فلما جلس إليهم قـالوا مـا وراءك يا أبـا الوليد؟ قال : ورائي أني قـد سمعت قـولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله مـا هو بـالسحـر ولا بـالشعـر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعـوني واجعلوها لي خلوا بين الـرجل وبين مـا

هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به ، قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه قال هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم »(١)

وروى ابن اسحاق باسناده إلى ابن عباس أنه اجتمع نفر من قريش وعرضوا على رسول الله ـ ﷺ ـ عرضاً قريباً من عرض عتبة ومقالته لرسول الله ـ ﷺ ـ فأجابهم ـ ﷺ ـ بقوله

« ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليَّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم »(٢)

ومن هنا رفض رسول الله ـ ﷺ ـ طلب بعض القبائل أن يكون الأمر لهم بعد موته إن صح هذا الخبر .

قال ابن اسحاق وحدثني الزهري أنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم ،

---

(١) أورده ابن اسحاق في السيرة ، قال حدثني يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي قال حدثت أن عتبة بن ربيعة وساق القصة . السيرة لابن هشام (١/٢٩٣ ـ ٢٩٤) ولها شاهد في حديث جابر أخرجه عبد بن حميد وأبو يعلى تقدم تخريجه ص وبه تتقوى القصة وتعتضد

(٢) السيرة لابن هشام (١/٢٩٥ ـ ٢٩٦) قال ابن اسحاق حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعن عكرمة مولى ابن عباس ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : اجتمع نفر من قريش عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان) وهذا يقوي ما قبله ويشد كل منهما الآخر .

يقال له بحيرة بن فراس والله لـو أني أخذت هـذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب ثم قـال : أرأيت إن نحن بايعنـاك على أمرك ، ثم أظهـرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ .

قال « الأمر إلى الله ، يضعه حيث يشاء » فقـال له أفتهـدف نحورنـا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله ، كـان الأمر لغيـرنا ، لا حـاجة لنـا بأمـرك فأبوا عليه[1]

وخلاصة هـذا أن الأنبياء عليهم الصـلاة والسلام مـا جاءوا لإسقـاط دول وإقامة أخرى ، ولا يطلبون ملكاً ولا ينظمون لذلك أحـزاباً وإنمـا جاءوا لهداية البشـر وانقـاذهم من الضـلال والشـرك وإخــراجهم من الـظلمــات إلىٰ النـور وتذكيرهم بأيام الله

ولــو عـرض عليهم الملك لــرفضـوه ، ومضـــوا في سبيـل دعـــوتهم ، وعرضت قريش الملك على رسول الله فرفضه

وقـد عُرِض عليـه أن يكون ملكـاً نبياً أو عبـداً رسولاً فـاختـار أن يكـون عبداً رسولاً .

عن أبي هـريرة ـ رضي الله عنـه ـ قال جلس جبـريل إلى النبي ـ ﷺ ـ فنظر إلى السماء ، فإذا ملك ينزل فقال جبريـل إن هذا الملك مـا نزل منـذ يوم خلق قبل الساعة فلما نزل ، قـال يا محمـد! أرسلني إليك ربـك قال أفملكـا نبياً يجعلك أو عبـداً رسولاً؟! قـال جبريـل تواضـع لـربـك يـا محمـد قال « بل عبداً رسولاً »[2] .

---

(١) السيرة لإبن هشام (١/٤٢٤ ـ ٤٢٥) والسيرة النبوية للذهبي (ص ١٨٩ ـ ١٩٠) .

(٢) مسند أحمد (٢/٢٣١) وابن حبان كما في الموارد (ص ٥٢٥) رقم (٢١٣٧) كلاهمـا من طريق محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن ابي زرعة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال الألبـاني وهذا اسنـاد صحيح على شـرط مسلم الصحيحة (٣/٤) ولـه شـاهد من حـديث ابن عباس اخـرجه البغـوي في شـرح السنـة (١٣ : ٢٤٨ ـ ٢٤٩) وسنده ضعيف .

ومن هنا ما كان يبايع الأنصار وغيرهم إلَّا على الجنة وكانت بيعة الأنصار في أحلك الظروف وأشدها فما كان فيها وعد بالمناصب لا الملك ولا الامارات ولا بالمال ولا بغير ذلك من حظوظ العاجلة .

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال

« إني من النقباء الذين بايعهم رسول الله ـ ﷺ ـ وقال بايعناه على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل النفس التي حرم الله ، إلَّا بالحق ، ولا ننتهب ، ولا نعصي ـ بالجنة »

وعن أبي مسعود الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال :

انطلق رسول الله ـ ﷺ ومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة ، فقال « ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة فإن عليكم من المشركين عيناً ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم » فقال قائلهم وهو أبو أمامة سل يا محمد لربك ما شئت ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل ، وعليكم إذا فعلنا ذلك

فقال « أسألكم لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأسألكم لي ولأصحابي أن تؤونا وتنصرونا ، وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم » .

قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال « لكم الجنة » . قالوا فلك ذلك[1] .

---

(١) رواه الامام أحمد في المسند (٤/١١٩ ـ ١٢٠)
قال: ثنا يحيى بن أبي زكريا بن أبي زائدة ، حدثني أبي عن عامر ـ (يعني الشعبي ثم رواه بهذا الاسناد عن مجالد عامر الشعبي عن أبي مسعود الانصاري ثم رواه بهذا الاسناد عن اسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي يقول : ما سمع الشيب ولا الشبان خطبة مثلها

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال :

مكث رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة عشر سنين يتتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة ، وفي المواسم بمنى ، يقول « من يؤيني ، من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة »

حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضرٍ (كذا) فيأتيه قومه ، فيقولون احذر غلام قريش ، لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم ، وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بَعَثَنَا اللَّهُ إليه من يثرب ، فآويناه ، وصدقناه فيخرج الرجل منا ، فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلاَّ فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، ثم ائتمروا جميعاً ، فقلنا حتى متى نترك رسول الله ـ ﷺ ـ يطرد في جبال مكة ، ويخاف ؟!! فرحل إليه منا سبعون رجلاً ، حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين ، حتى توافينا ، فقلنا يا رسول الله ! نبايعك؟ .

قال « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني ، فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنَّة » .

قال : فقمنا إليه فبايعناه وأَخَذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو أصغرهم ، فقال رويداً يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلاَّ ونحن نعلم أنه رسول الله ـ ﷺ ـ وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب ، كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك ، وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة ، فبيِّنُوا ذلك ، فهو عذر لكم عند الله ، قالوا أمط عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نُسْلَبُها أبداً ، قال فقمنا إليه فبايعناه ، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك

الجنة »[1].

ومن هنا ـ أيضاً ـ كان يربي أصحابه على القرآن والسُّنَّة وعلى الإيمان والصدق والإخلاص لله في كل عمل بعيداً عن الأساليب السياسية والإغراء بالمناصب العالية

فما كان يمنّي أحداً منهم قبل دخوله في الإسلام أو بعده بمنصب في الدولة فهذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أحد عظماء الصحابة وأقواهم شخصية ما كان يعده رسول الله ـ ﷺ ـ بالمناصب ولا تتطلع نفسه إليها حتى جاء يوم خيبر أي بعد عشرين سنة من البعثة فاجأهم رسول الله بقوله

« لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه »

فبات هو والصحابة يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ، وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ ما أحببت الإمارة إلاَّ يومئذٍ[2]

---

(1) أخرجه الامام أحمد (٣/٣٢٢): ثنا عبد الرزاق، أنا معمر عن ابن خثيم عن أبي الزبير عن جابر ، (٣/٣٣٩): ثنا اسحاق بن عيسى ، ثنا يحيى بن سليم ، عن عبد الله بن عثمان ابن خُثيم عن أبي الزبير أنه حدثه عن جابر أن رسول الله ﷺ وذكر الحديث. وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، كما في موارد الظمآن (ص ٤٠٨) والحاكم (٢/٦٢٤) وصححه ووافقه الذهبي وقد تابع أبا الزبير الامام الشعبي ـ رحمه الله قال البزار ـ رحمه الله ـ : « حدثنا محمد بن معمر ، ثنا قبيصة ثنا سفيان عن جابر وداود ـ هو ابن أبي هند ـ عن الشعبي عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ للنقباء من الأنصار ، تؤوني وقالوا نعم ، فما لنا قال الجنة ، قال البزار لا نعلمه يُروى عن الشعبي إلاَّ بهذا الإسناد » انظر كشف الأستار (٢/٣٠٧).
وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه الأحاديث وحكى تصحيح بعضها وحسن بعضها وقوى بعضها انظر فتح الباري (٧/٢٢٢ ـ ٢٢٣).

(2) أخرجه مسلم ٤٤ ـ كتاب الفضائل ٤ ـ باب فضائل علي ـ رضي الله عنه ـ حديث (٣٣) عن أبي هريرة وحديث (٣٤) عن سهل بن سعد وفيه فباتوا يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها وفيه « رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله »
وحديث ٣٢ عن سعد بن أبي وقاص وفيه: « لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله =

لأي شيء تطلع هؤلاء الصحابة الكرام؟! ألـلإمارة نفسهـا أم لنيل هـذه المنزلة العظيمة حب الله ورسوله؟ ولماذا كان عمر بن الخطاب لا يحب الإمارة لو كان رسول الله يحببها إليهم ويربيهم عليها ويمنيهم بها

بل كان ينفرهم منها ويحذرهم من الحرص عليها

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال، قال رسول الله - ﷺ - : « إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة ، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة »[1]

وينهى عن طلبها والحرص عليها

عن عبد الرحمن بن سمرة - رضي الله عنه قال قال لي رسول الله - ﷺ - « يا عبد الرحمن ! لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها »[2]

= ويحبه الله ورسوله قال : فتطاولنا لها ».

والسبب هو ما ذكرناه حرصهم على هذه المنزلة الرفيعة عند الله لا على الإمارة نفسها

وأخرجه البخاري ٥٦ - كتاب الجهاد ١٤٣ - باب فضل من أسلم على يديه رجل حديث (٣٠٠٩) ، ٦٢ - كتاب فضائل الصحابة ٩ - باب مناقب علي - رضي الله عنه - حديث (٣٧٠١).

والترمذي ٥٠ - كتاب المناقب باب ٢١ - حديث (٣٧٣٤) و(٥/٦٣٨) وابن ماجه في المقدمة ١١ - حديث (١١٧) اسناده ضعيف فيه محمد بن أبي ليلى وهو ضعيف .

(١) أخرجه البخاري ٩٣ - كتاب الأحكام ، ٧ - باب ما يكره من الحرص على الامارة حديث (٧١٤٨) والامام أحمد في المسند (٢/٤٠٤٨) والنسائي في كتاب آداب القاضي (٨/١٩٩).

« نعم المرضعة لما فيها من حصول الجاه والمال ونفاذ الكلمة ، وتحصيل اللذات الحسية والوهمية حال حصولها وبئست الفاطمة عند الانفصال عنها بموت أو غيره وما يترتب عليها من التبعات في الآخرة » فتح الباري (١٣/١٢٦).

(٢) البخاري ٩٣ - ٦ - باب من سأل الامارة وكل إليها حديث (٧١٤٧) ومسلم ٣٣ - =

بل فوق كل هذه الأساليب يُرسي قاعدة إسلامية تحرم المناصب على من يتعشقها ويحرص عليها ، عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ـ ﷺ أنا ورجلان من بني عمي فقال أحد الرجلين يا رسول الله ! أمِّرْنَا على بعض ما ولاك الله عز وجل وقال الآخر مثل ذلك ، فقال « إنَّا لاَ نُولِّيْ على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه ».

وفي لفظ عند مسلم « ما تقول يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس » قال فقلت والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما وما شعرت انهما يطلبان العمل ، قال وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت ، فقال « لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده ، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى » فبعثه إلى اليمن ثم اتبعه معاذاً وفي النسائي « أنا لا نستعين في عملنا بمن سألنا »[(١)]

قال الحافظ قال المهلب

« الحرص على الولاية هو السبب في اقتتال الناس عليها حتى سفكت الدماء واستبيحت الأموال والفروج وعظم الفساد في الأرض بذلك ، ووجه الندم انه قد يقتل أو يعزل أو يموت فيندم على الدخول فيها لأنه يطالب بالتبعات التي ارتكبها ، وقد فاته ما حرص عليه بمفارقته

قال ويُستثنى من ذلك مَن تعنّى عليه كأن يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره ، وإذا لم يدخل في ذلك يحصل الفساد بضياع

= كتاب الامارة ٣ ـ باب النهي عن طلب الامارة والحرص عليها حديث ١٣ ، والنسائي (١٩٨/٨).

(١) البخاري (٩٣ ـ كتاب الاحكام ٧ ـ باب ما يكره من الحرص على الامارة (٧١٤٩) ومسلم ٣٣ ـ كتاب الامارة باب النهي عن طلب الامارة ، حديث ١٤ ، ١٥ (١٤٥٦/٣) والنسائي (١٩٨/٨).

الأحوال »[1]

وعلى كل حال فالإمارة والقضاء من الأمور التي لا بد منها ولا تقوم حياة المسلمين إلَّابها. وبها تعصم الدماء والأموال

ولكن يجب أن نسلك في اختيار الأمراء والقضاة منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تُعطى هذه المناصب لمن يسألها أو يحرص عليها أو يرشح نفسه لها عن طريق الانتخابات مثلاً فإن هذا من الحرص عليها

وإنما يُختار لها الاكفاء علماً وزهداً فيها وتقوى .

ثم ينبغي أن نستفيد من هذا المنهج النبوي في التربية ، فلا ينبغي أن ننشىء الشباب على حب القيادة والرئاسة والسيادة والإمارة فلو نشأناهم على حب هذه الأشياء خالفنا هدي رسول الله ـ ﷺ ، وأوقعنا الشباب في المهالك وأي فلاح ننتظره في الدنيا والآخرة إن خالفنا منهج رسول الله ـ ﷺ ـ .

﴿ وَيَقُولُون آمَنَّا باللّهِ وبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَمَآ أُولئِكَ بِالمُؤْمِنينَ * وإذا دُعُوا إلىٰ اللّٰهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُون ﴾ [النور : ٤٧ ـ ٤٨]

عرفنا فيما مضى من منهج الأنبياء في الدعوة إلىٰ التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره وأسبابه ، وأنه منهج قائم على العقل والحكمة والفطرة، وعرفنا أدلة ذلك جملةً وتفصيلاً من نصوص الكتاب والسنَّة ومن الناحية العقلية

والآن نسأل

هل يجوز للدعاة إلى الله في أي عصرٍ من العصور العدول عن منهج

(١) فتح الباري (١٣ : ١٢٦)

الأنبياء في الدعوة إلى الله؟ .

الجواب في ضوء ما سبق وما سيأتي ، لا يجوز شرعاً ولا عقلاً العدول عن هذا المنهج واختيار سواه

أولاً أن هذا هو الطريق الأقوم الذي رسمه الله لجميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم

والله واضع هذا المنهج هو خالق الإنسان والعالم بطبائع البشر وما يُصلح أرواحهم وقلوبهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك ١٤] .

وهو الحكيم العليم ، في خلقه وشرعه ، وقد شرع لأفضل خلقه هذا المنهج

ثانياً إن الأنبياء قد التزموه وطبقوه ، مما يدل دلالة واضحة أنه ليس من ميادين الاجتهاد ، فلم نجد

١ ـ نبياً افتتح دعوته بالتصوف
٢ ـ وآخر بالفلسفة والكلام
٣ ـ وآخرين بالسياسة .

بل وجدناهم يسلكون منهجاً واحداً واهتمامهم واحد بتوحيد الله أولاً وفي الدرجة الأولى

ثالثاً إن الله قد أوجب على رسولنا الكريم الذي فرض الله علينا اتباعه أن يقتدي بهم ، ويسلك منهجهم ، فقال بعد أن ذكر ثمانية عشر منهم ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام ٩٠]

وقد اقتدىٰ بهداهم في البدء بالتوحيد ، والاهتمام الشديد به

رابعاً ولما كانت دعوتهم في أكمل صورها تتمثل في دعوة إبراهيم

عليه الصلاة والسلام ، زاد الله الأمر تأكيداً ، فأمر نبينا محمد ﷺ باتباع منهجه فقال

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيْمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل ١٢٣]

والأمر باتباعه يشمل الأخذ بملته التي هي التوحيد ومحاربة الشرك ويشمل سلوك منهجه في البدء بالدعوة إلى التوحيد ، وزاد الله تعالى الأمر تأكيداً ـ أيضاً ـ فأمر أمة محمد ﷺ باتباع ملة هذا النبي الحنيف ، فقال تعالى

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾ .

إذن ، فالأمة الإسلامية مأمورة باتباع ملته ، فكما لا يجوز مخالفة ملته ، لا يجوز العدول عن منهجه في الدعوة إلىٰ التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره ووسائله

خامساً قال الله تعالى

﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوْهُ إِلىٰ اللّهِ وَالرَّسول إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : ٥٩].

فإذا رجعنا إلىٰ القرآن أخبرنا أن كل الرسل كانت عقيدتهم عقيدة التوحيد وأن دعوتهم كانت تبدأ بالتوحيد وأن التوحيد أهم وأعظم ما جاءوا به

ووجدنا أنَّ الله قد أمر نبينا باتباعهم وسلوك منهاجهم، وإذا رجعنا إلىٰ الرسول نجد أن دعوته من بدايتها إلى نهايتها كانت اهتماماً بالتوحيد ومحاربة للشرك ومظاهره وأسبابه وقد مر بنا عرض شيء من هذا

سادساً إن الله قد خلق هذا الكون ونَظَّمَهُ تنظيماً كونياً وشرعياً ،

فجعل للكون سنناً يسير في نطاقها لو اختلت هذه السنن الكونية لفسد هذا الكون ، فوضع للسماوات والأرض والأفلاك والكواكب والشمس والقمر سنناً لو اختلت هذه السنن لانتهى وجود هذا الكون

ومن سنن الله الكونية أن الحيوان من إنسان وغيره لا يعيش إلاَّ بروح وجسد ، فلو فارقت الروح الجسد مات الجسد وفسد وانتن ووجب أن يُوارىٰ هذا الجسد حتى لا يؤذي الحيوانات بريحه ونتنه

ومن سنن الله في عالم النبات أن الشجرة لا تقوم وتحيا إلاَّ علىٰ ساق فإذا استؤصل ساقُها ماتت الفروع

وفي عالم الشرائع لا تقوم الشريعة إلاَّ على عقيدة ، فلو خلت تلك الشريعة من العقيدة ، فَسَدَتْ وما بقيت شريعة صحيحة

فمثلاً شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ـ بقيت في الأمة العربية دهوراً فلما أدخل عمرو بن لحي الخزاعي فيها الشرك أصبحت شريعة وثنية ، فسدت وتغيرت حقيقتها لأنها فقدت عقيدة التوحيد التي قامت عليها والتي كانت أصلها الأصيل

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن عامر الخزاعي ، يجر قصبه[1] في النار ، كان أول من سيب السوائب »[2]

وعنه ـ رضي الله عنه ـ سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول لأكثم بن الجون الخزاعي « رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندق ـ يجر قُصْبَهُ

---

(١) قصبة أمعاءه .

(٢) أخرجه البخاري ٦٥ ـ كتاب التفسير ، باب ما جعل الله من بحيرة ولا وصيلة ولا حام ، حديث (٤٦٢٣) ، ومسلم ١٠ ـ كتاب الكسوف حديث (٩) ، ٥١ ـ كتاب الجنة ، باب ١٣ ـ ، حديث (٥٠، ٥١) وأحمد (٢٥٧/٢).

في النار ، فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ، ولا بك منه » فقال أكثم عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ .

قال « لا ، إنك مؤمن وهو كافر . إنه أول من غَيَّر دين اسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي »[1]

فبعد إفساد عمرو بن لحي لعقيدة الشريعة التي جاء بها إبراهيم وتبعه اسماعيل صارت ديانة وثنية والعرب عُبَّاد أوثان ولو بقوا مصرين على الانتماء إلى إبراهيم ودينه وشريعته ولو بقوا يتمسكون ببقايا مما جاء به كتعظيم البيت والطواف به والقيام بالحج والعمرة والوقوف بعرفة والمزدلفة وهدي البدن وغيرها من أنواع التقرب إلى الله

وكذلك كانت رسالة موسى وعيسى رسالة توحيد وشريعة سماوية فلما فقدتا عنصر التوحيد بقول اليهود « عزير ابن الله » وبقول النصارى « المسيح ابن الله » صَارَتَا دِيَانتين كافرتين ، لا يجوز نسبتهما إلى الله ولا إلى هذين النبيين الكريمين

قال تعالى

﴿ قَاتِلُوا الَّذِيْنَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِيْنُونَ دِيْنَ الحَقِّ مِنَ الَّذِيْنَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرونَ * وَقَالَت اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابن اللّهِ وَقَالَتِ النَّصارىٰ المَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا

---

(1) السيرة لابن هشام (٧٦/١) قال : قال ابن اسحاق : وحدثني محمد بن ابراهيم التيمي أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ - وذكر الحديث وقد صرح ابن اسحاق بالتحديث وبقية الاسناد ثقات فهو إسناد حسن على أقل تقدير .

مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال « إذا كان يوم القيامة ، أَذَّنَ مؤذِّنٌ ؛ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلاَّ يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلاَّ من كان يعبد الله من بر وفاجر ، وغبرات [1] أهل الكتاب فيُدعى اليهود ، فيقال لهم من كنتم تعبدون؟ قالوا كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ، ولا ولد ، فماذا تبغون؟ .

فيقولون عطشنا ربنا ، فاسقنا ، فيُشار : ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فيتساقطون ، ثم يُدعى النصارى ، فيقال لهم من كنتم تعبدون؟ .

قالوا كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فيقال لهم ماذا تبغون ؟ فكذلك مثل الأول حتى إذا لم يبق إلاَّ من كان يَعْبُدُ الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين في أدنىٰ صورة من التي رأوه فيها ، فيقال ماذا تنتظرون ؟

تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا فارقنا الناس في الدنيا على أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم ، ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد ، فيقول أنا ربكم فيقولون لا نشرك بربنا شيئاً مرتين »[2]

---

(١) الغبرات : جمع غُبَّر « النهاية في غريب الحديث » (٣/٣٣٨).
وقال الحافظ في الفتح (١١/٤٤٩) : غُبَّر أهل الكتاب ـ بضم الغين المعجمة وتشديد الموحدة ، وفي رواية مسلم « وغُبَّر أهل الكتاب » كلاهما جمع غابر والغبرات : جمع غبر وغبر جمع غابر ويجمع أيضاً ـ على أغبار ، وغبر الشيء بقيته »

(٢) البخاري ٦٥ ـ كتاب التفسير تفسير سورة النساء ، باب ٨ « إن الله لا يظلم مثقال =

والشاهد من الآيتين والحديث أن اليهود والنصارى أفسدوا رسالتي موسىٰ وعيسى رسالتي التوحيد والإيمان بعبادتهم لعزير وعيسىٰ وقولهم فيهما ما قالوا ، فصاروا بذلك مشركين كافرين وتحولت تانكم الرسالتان بتصرفهم الخبيث وتحريفهم الدنيء إلى ديانتين وثنيتين كاذبتين لا يجوز نسبتهما إلى الله ولا إلى ذينك الرسولين الكريمين ولو بقي منهما الكثير الكثير من شرائع موسى وعيسى

ولقد اتضح للقارىء أن عقيدة التوحيد بالنسبة لجميع شرائع الأنبياء بمن فيهم خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ـ كالأساس للبناء ؛ فلا قيام للبناء إلاّ بالأساس وكالأصل للشجرة ؛ فلا قيام ولا حياة للشجرة إلاّ بأصلها وكالروح للجسد ؛ فلا قيام ولا حياة للجسد إلاّ بالروح وبهذه المقاييس العقلية والشرعية يجب أن يقيس العاقل الدعوات ليعرف منها ما هو على جادة الأنبياء وما هو بعيد عنها

وأحب أن أزيد ثلاثة أمثلة نزداد بها فهماً لسنن الله التشريعية وأن التنظيم والترتيب فيها أمر مقصود ويجب اتباعه ولا يجوز العدول عنه

الأول الصلاة علمنا رسول الله الصلاة تعليماً عملياً وقال « صلوا كما رأيتموني أصلي »[1]

فبدأ ﷺ بالقيام ثم بالتكبير ثم القراءة ، ثم الركوع ثم السجود هذا

= ذرة » ، حديث (٤٥٨١) ، ومسلم ١ـ كتاب الإيمان ٨١ ـ باب معرفة طريق الرؤية ، حديث (٣٠٢) .

(١) أخرجه البخاري ١٠ ـ كتاب الأذان ١٨ ـ باب أذان المسافر ، حديث (٦٣١) و٧٨ ـ كتاب الأدب ٢٧ ـ باب رحمة الناس والبهائم ، حديث (٦٠٠٨) و٩٥ ـ كتاب أخبار الآحاد ١ ـ باب ما جاء في اجازة خبر الواحد ، حديث (٧٢٤٦)، ومسلم ٥ ـ كتاب المساجد ٥٣ ـ باب من أحق بالإمامة ، حديث (٢٩٢)، والنسائي (٨/٢) والدارمي (٣٢٩/١) ، حديث (١٢٥٦)، وأحمد (٤٣٦/٣). كلهم من حديث مالك بن الحويرث ـ رضي الله عنه

نفعله في ركعة ثم الثانية كذلك ثم التشهد الأول ثم التشهد الأخير ثم السلام

فلو قالت جماعة الآن الأفضل في هذا العصر أو الواجب أن نبدأ بالسلام ونختم بالتكبير أو نقدم السجود على الركوع أو نجعل التشهد بدل الفاتحة والفاتحة مكان التشهد فلو تم لها هذا أو شيء منه فهل تكون هذه صلاة صحيحة وهل تكون إسلامية؟!!.

الثاني حج رسول الله - ﷺ - وعَلَّم الناس مناسك الحج وقال «خذوا عني مناسككم».

وجعل الوقوف بعرفة في مكانٍ وزمنٍ معين هو اليوم التاسع ، وجعل المبيت بالمزدلفة في ليلة معينة وجعل يوم النحر وأيام التشريق ولياليه في مكان وزمن معين وجعل طواف الإفاضة في زمن معين، وجعل للسعي مكاناً معيناً بين الصفا والمروة حدد بدايته ونهايته

فلو أن جماعة أرادوا أن يغيروا شيئاً من هذه المناسك عن زمانه أو مكانه ، مثلاً قالوا نريد أن يكون طواف الافاضة في اليوم السابع وأن يكون بين الصفا والمروة ونريد أن ننقل الوقوف بعرفة إلى اليوم الثامن أو العاشر إلى مزدلفة أو منى ونريد النحر بعرفات ، أو نريد أن نقدم ونؤخر في هذه المناسك حسب المصلحة وحسب ظروف الحجاج أيكون هذا حجاً إسلامياً أو يكون مسخاً وتشويهاً لهذا النسك ؟!!

الثالث: وهو بيت القصيد

بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته بالتوحيد وكذلك جميع الرسل وكان يوصي أمراءه ودعاته ، بالبدء بدعوة التوحيد ، فمن ذلكم من أمثلة كثيرة قوله لمعاذ لما بعثه إلى اليمن

« إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة

أن لا إلـه إلاّ الله   فإن هم أطـاعوك لـذلـك فـأخبـرهم أن الله افتـرض عليهم خمس صلوات في كـل يوم وليلة ، فـإن هم أطاعـوك لذلـك فأخبـرهم أن الله فرض عليهم صدقـة تؤخذ من أغنيـائهم فترد إلى فقـرائهم »[1] ألا تراهـا دعوة منظمة وتشريعاً منظماً

يبـدأ بأصـل الأصول ثم يتـدرج من الأهم إلى المهم   فلمـاذا لا نفهم هـذا التنظيم الـدقيق؟ ولماذا لا نلتـزمه؟ ولمـاذا نفهم أنه يجب علينـا أن نلتزم سنة الله التشريعيـة وتنظيمـه الدقيق في العبـادات وجزئيـاتها ولا نفهم سنـة الله وتنظيمه وترتيبه الـدقيق في ميدان الـدعوة الـذي تتابـع فيه الأنبيـاء جميعاً على وتيـرةٍ واحدةٍ

ونستجيـز مخالفـة هذا المنهـج العظيم الأصـل والعدول عنـه ؟!!! إن هذا لأمـر خطيـر يجب أن يُراجـع فيـه الـدعـاة عقـولهم ويغيـروا مواقفهم

هل استفادت الأمة الإسلامية وخصوصاً دعاتهـا من هذا المنهـج العظيم منهج الأنبياء في الاهتمام بالتوحيد وجعله منطلقاً لدعواتهم؟ .

* والجواب   أن واقع الأمـة الإسلاميـة مؤلـم ومريـر وأن أمرءًا لـو مات كمداً أو أمة من هذا الواقع المؤلم المظلم لحق له ولها ذلك

كيف ذلك؟!!

إن كثيراً من الأمة الإسلامية بما فيها دعـاتها ومفكـروها ـ قـد جهلوا هذا المنهـج وبعضهم يتجاهله ، وحـالت الشياطين بينهم وبينـه واجتـالتهم عنـه ، واتخـذوا من المناهـج المخالفـة لمنهج الأنبيـاء مـا أرداهم ودهـاهم في دينهم ودنياهم ، وصدق فيهم قول الرسول الصادق المصدوق ـ ﷺ ـ :

« لتتبعنَّ سنن من كـان قبلكم شبراً بشبـر وذراعاً بـذراع حتى لـو سلكوا جحـر ضب لسلكتمـوه » قلنـا   يـا رسـول الله   اليهـود والنصـارى؟ قـال

(١) تقدم تخريجه

« فمن »[1]

وقوله - ﷺ - :

« إفترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة »[2]

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ٥٠ - باب ما ذكر عن بني اسرائيل حديث (٣٤٥٦)، ٩٦ - كتاب الإعتصام ١٤ - باب قول النبي - ﷺ - لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حديث (٧٣٢٠).
ومسلم ٤٧ - كتاب العلم ٣ - باب اتباع سنن اليهود والنصارى حديث (٦)، وأحمد في المسند (٣/٨٤، ٨٩، ٩٤) من حديث أبي سعيد مرفوعاً وابن ماجه ، ٣٦ - الفتن ١٧ - باب افتراق الأمم حديث (٣٩٩٤). وأحمد (٢/٣٢٧) من حديث أبي هريرة قال محمد فؤاد : في الزوائد إسناده صحيح رجاله ثقات وأخرجه ابن أبي عاصم في السنن (١/٣٦، ٣٧) من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وأبي سعيد وصحح بعضها وحسن البعض الآخر .

(٢) أخرجه أبو داود ، ٣٤ - كتاب السنة ، حديث (٤٥٩٧). وأخرجه أحمد (٤/١٠٢)، والدارمي (٢/١٥٨)، حديث (٢٥٢١)، والحاكم في المستدرك (١/١٢٨) من حديث معاوية - رضي الله عنه -
وأخرجه ابن ماجه ٣٦ - كتاب الفتن ١٧ - باب افتراق الأمم ، حديث (٣٩٩٣) من حديث عوف بن مالك وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١/٣٢) وقال الألباني إسناده جيد ».
وأخرجه أبو داود ٣٤ - كتاب السنة ، باب شرح السنة ، حديث (٤٥٩٦) والترمذي ٤١ - كتاب الإيمان ١٨ - باب ما جاء في افتراق هذه الأمة حديث (٢٦٤٠)، وأحمد (٢/٣٣٢)، وابن ماجه ١٧ - باب افتراق الأمم حديث (٣٩٩١) من حديث أبي هريرة وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/٣٦) قال الألباني وهو صحيح وأخرجه أحمد (٣/١٢٠، ١٤٥) من حديث أنس من طريقين وله شواهد كثيرة بعضها في الصحيحة). وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/٣٢) وقال محققه الألباني « والحديث صحيح قطعاً ، لأن له ست طرق وشواهد عن جمع من الصحابة ».

وفي لفظ من هي يا رسول الله؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي »[1].

وأصبحوا غثاءً كغثاء السيل كما قال رسول الله ﷺ

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال قائل ومن قلة نحن يومئذٍ ؟.

قال « بل أنتم يومئذٍ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن » فقال قائل وما الوهن؟ قال « حب الدنيا وكراهية الموت »[2].

أجل ، أصبحوا غثاء كغثاء السيل وتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها وغَزَوْهم في عقر دارهم ، واستذلوهم ، واستعبدوهم ، وامتلكوا نواصيهم وأوطانهم واستنزفوا ثرواتهم ، وأفسدوا أخلاقهم كل ذلك نتيجة لبعدهم عن منهج الله ، منهج النبوة

وفي غمرة هذا الواقع المؤلم ؛ وبعد فوات الأوان ، فتح كثير من الناس أعينهم واستيقظوا من نومهم ، فأخذوا يصيحون في المسلمين عودوا إلى الله فهذه مسالك النجاة

وأخذوا يكتبون ويخطبون ، ويوجهون الناس ويخططون ويرسمون لهم طرق العزة والكرامة والانقاذ ، وكُلٌ قَدَّم جهده وما تراءى له أنه الحق

وأقول بحق إنهم قدموا الشيء الكثير في مجال الأخلاق والاجتماع

---

(١) أخرجه الترمذي ٤١ ـ كتاب الإيمان ، حديث (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص

(٢) أخرجه أبو داود ٣١ ـ كتاب الملاحم ٥ ـ باب في تداعي الأمم على الإسلام، حديث (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/٢٧٨) وأبو نعيم في الحلية (١/١٨٢). وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه أحمد (٢/٣٥٩) فهو صحيح وصححه الألباني انظر الصحيحة (٢/٦٨٤) رقم (٩٥٨).

والسياسة والاقتصاد ، وهم كثر ويشكلون إتجاهات متعددة ، ولو وُجِّدَت جهودهم وانطلقوا من حيث انطلقت الرسل ، وساروا في منهجهم جادين لخلصوا أمتهم مما وقعوافيه ولوصلوابهم إلى ما يريدون وأهم هذه الاتجاهات ثلاثة

* **الأول:** يمثله جماعة أخذت بمنهج الرسل في عقيدتها ودعوتها وتمسكت بكتاب ربها وسنة نبيها وترسمت خطى السلف الصالح في عقيدتها وعبادتها ودعوتها

وهذا هو الاتجاه الذي يجب أن يلتف حوله المسلمون تنفيذاً لقول الله تعالى: ﴿ واعتَصِموا بِحَبْلِ اللّهِ جَميعاً ﴾ ولتتظافر جهودهم ، فيرضى عنهم ربهم وتقوى شوكتهم ويصلون بذلك إلى ما يريدون من عزة وسيادة وسعادة ويؤخذ على أصحاب هذا الاتجاه أنهم لم يبذلوا من الجهود المادية والمعنوية لنشر دعوة الحق ومن العرض القوي لحقهم في شكل دعوة ومؤلفات ما يتناسب مع مكانة دعوتهم وجلالها

والثاني : يمثله جماعة اهتمت ببعض الأعمال من الإسلام وتغلبت عليها نزعات صوفية هزت عقيدة التوحيد في نفوس كثير من أتباعها وعليهم مؤاخذات في عقائدهم وعباداتهم

وقد قام الشيخ تقي الدين الهلالي والشيخ محمد أسلم أحد خريجي الجامعة الإسلاميةوغيرهمابنقد موجه لهذه الجماعة من واجبها أن تستفيد منه وتعود إلى جادة الحق والصواب

والثالث يمثله جماعة اهتمت بجوانب من الإسلام سياسية واقتصادية واجتماعية وقدمت الكثير ، ويُعرف ما قدموه بما هو في المكتبات والمنابر والجامعات ، وهم يشكرون على هذا الجهد الذي قدموه.

ومما يؤخذ على هذا الاتجاه أنهم كتبوا في المجال السياسي الشيء الكثير باسم السياسة الإسلامية ، والدعوة إلى حاكمية الله وإقامة الدولة

الإسلامية

وأهابوا بالأمة الإسلامية ـ خصوصاً شبابها ـ لتكريس طاقاتها وتجنيد إمكانياتها لتحقيق هذه الغاية بأساليب في غاية من القوة والجاذبية التي تأسر القلوب وتخلب الألباب وكتبوا في الاقتصاد الإسلامي وعن محاسن الإسلام وفيه الشيء الكثير الطيب النافع الذي تحتاج إليه الأمة خصوصاً في هذا الوقت والذي يحمدون عليه

وفيه أيضاً الذي يؤاخذون عليه أنهم في الوقت نفسه الذي اهتموا فيه بهذه الجوانب قصروا في حق العقيدة تقصيراً واضحاً ، فلو اتجهوا بالقوة نفسها والاهتمام نفسه إلى الاصلاح في العقيدة على منهج الأنبياء وكرسوا جهودهم وأقلامهم على اقتلاع الشركيات ومظاهرها والبدع والخرافات وأساطيرها لحققوا الخير الكثير للإسلام والمسلمين ولأتوا البيوت من أبوابها ، ولكانوا حقاً على منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولما كانت دعوتهم وانتاجهم الفكري بالمكانة التي ذكرتها وأنا واحد من القراء المكثر لهذا النتاج ـ أحببت أن أبدي بعض الملاحظات على بعض قادة هذا الاتجاه إحساساً بثقل المسؤولية أمام الله القائل في محكم كتابه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾

وتأسياً بعلماء هذه الأمة ودعاتها المخلصين بدأ من الصحابة وانتهاء بالعلماء المخلصين في وقتنا الحاضر .

فأرجو ممن يتعاطف مع هذا الاتجاه ، أن يحسنوا الظن بأخيهم وأن يشاركوه في الإحساس بواجب المسؤولية وثقلها أمام الله ، وأن يفتحوا صدورهم للنقد الذي أرجو أن يكون بناءً وهادفاً إلى الخير ونفع الأمة الإسلامية

وأرجو مرة أخرى أن يدركوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يناقشه أصحابه في بعض قراراته ، فيفتح صدره للمناقشة ويتنازل عن رأيه

إذا رأى الصواب ، فيما يطرحونه أمامه من وجهات نظرهم وآرائهم وربما نزل القرآن بتأييد آرائهم

فمن كبار قادة هذا الاتجاه أبو الأعلى المودودي رحمه الله ، هذا المفكر الكبير له حسنات جلى في خدمة الإسلام لا تُجحد ، ولكن عليه مآخذ شديدة لا يجوز لمسلم يخشى الله ويجل الإسلام الذي يربأ باتباعه عن تقديس الأشخاص وأفكارهم ، أن يسكت عنها

* فمن تلكم المآخذ أنه على عُمْق فَهمه وتوقد ذكائه لم ينطلق **أولاً** ـ بدعوته من حيث انطلق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله ومحاربة الشرك ومظاهره مع أن بلاده التي نشأ فيها أشد بلدان الله حاجة ، إلى دعوة الأنبياء والدواعي فيها أوفر.

فهي بلاد عريقة في الوثنية تعبد فيها الأوثان والأبقار والأحجار والقرود ، والفروج ففيها أحط أنواع الوثنيات وأقبحها وأشنعها

والمسلمون في هذا البلد إلاَّ القليل من أبعد الناس عن فهم الإسلام والتوحيد ، وعقائدهم متأثرة إلى حد بعيد بعقائد جيرانهم الوثنيين ، وكم يرى الرائي معبداً للوثنيين مكللاً بالزهور فيرى مقابله مسجداً للمسلمين فيه قبرٌ مشيدٌ مكللٌ بالزهور ويتصاعد فيه البخور ويلبس بالحرير والمسلمون عاكفون حوله في غاية من الخشوع والخضوع والإجلال مع اعتقادهم في الأولياء أنهم يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون[1].

فهل ترى بلداً في أرض الله في غابر التاريخ وحاضره ولاحقه أشد حاجة إلى دعوة التوحيد من هذا البلد؟!!

ثانياً اهتم بالجانب السياسي فأخذ من دعوته مساحة كبيرة

---

(١) من يفعل ذلك لا يطلق عليه أنه مسلم إلاَّ إذا فعله عن جهل ولم تقم عليه الحجة ـ الفوزان .

وحجماً أكبر من الحجم الذي أعطاه الإسلام لهذا الجانب وفهم علماء سلف هذه الأمة من محدثين وفقهاء وجعل لنفسه ولاتباعه غاية لم يرسمها الله لرسله ولا كلفهم واتباعهم بها لأنها فوق الطاقة البشرية

يقول المودودي ـ رحمه الله ـ معبراً عن هذه الغاية

أ ـ « لعله قد تبين لكم من كتاباتنا ورسائلنا أن غايتنا النهائية التي نقصدها من وراء ما نحن بصدده الآن من الكفاح إنما هي إحداث الانقلاب في القيادة ، وأعني بذلك أن ما نبتغي الوصول إليه والظفر به في هذه الدنيا أن نطهر الأرض من أدناس قيادة الفسقة الفجرة وسيادتهم ، ونقيم فيها نظام الإمامة الصالحة الراشدة ، فهذا السعي والكفاح المتواصل نراه أكبر وأنجح وسيلة موصلة إلى نيل رضى الرب تعالى وابتغاء وجهه الأعلى في الدنيا والآخرة »[1] .

لعلَّ القارىء الفطن الذكي الفقيه الذي يحفظ القرآن ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار ويتدبر دعوات الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم لا يعرف أن هذه غاية الأنبياء التي كافحوا من أجلها ، ولا يفهم أن هذا السعي والكفاح أكبر وأنجح وسيلة موصلة إلى مرضاة الله وابتغاء وجهه بل أكبر وأنجح وسيلة إلى نيل رضى الرب هو اتباع منهج الأنبياء في دعوتهم وترسم خطاهم في تطهير الأرض من الفساد والشرك ، وأكبر وسيلة الإيمان بأركانه المعروفة والإسلام بأركانه المعروفة أيضاً

ب ـ ويقول: « ومن دواعي الأسف أننا نشاهد الناس اليوم جميعاً المسلمين منهم وغير المسلمين ـ غافلين عن هذا الذي جعلناه غايتنا ومطمح أبصارنا

أما المسلمون ، فلأنهم يعدونه غاية سياسية بحتة ، ولا يكادون

---

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية (ص ١٦) .

يفطنون لمكانته وأهميته في الدين ، وأما غير المسلمين فيما نشؤوا عليه من التعصب على الإسلام ، ولجهلهم وقلة معرفتهم بتعاليمه لا يعلمون أصلاً أن قيادة الفجار والفساق إنما هي منشأ جميع الكوارث ، والنكبات التي مُنِيَ بها الجنس البشري ، وأن سعادة البشر وغبطته إنما تتوقف على أن يكون زمام أمور الدنيا بأيدي الصالحين العادلين»[1] .

أقول : ما رآه الأستاذ غايته واتباعه ومطمح أبصارهم هو شيء مهم ولكنه غير غاية الأنبياء ؛ وأعظم منها وأجدى منها الاهتمام بهداية الناس ودعوتهم جميعاً قويهم وضعيفهم إلى التوحيد وهي غاية الأنبياء والمصلحين

وقوله « إن قيادة الفجار هي منشأ جميع الكوارث والنكبات التي مُنِيَ بها الجنس البشري » أقول قد تكون هي من الأسباب وإلى جانبها أسباب أُخر هي كفر الشعوب بالله وإشراكها به وفسوقها عن هداية الأنبياء

قال تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ وقال ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابَاً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً ﴾

فبظلم الناس حكامهم ومحكوميهم وأغنيائهم وفقرائهم يصب الله عليهم الكوارث والمصائب والنكبات من الحروب المدمرة والأمراض الفتاكة والمجاعات المهلكة والصواعق والفيضانات ونزع البركات من الأرض وغيرها

---

(١) الأسس الأخلاقية (ص ١٦ ـ ١٧) .

ومع هذا فعبادة الأوثان الموجودة في الهند وغيره أبغض إلى الله وإلىٰ أنبيائه والمصلحين من ظلم الحكام على فظاعته وبغضه إلىٰ الله

ولذا ترى ابراهيم يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ﴾

وفي وقته أظلم الحكام وأعتاهم وأفسدهم ، لكنه جعل غايته الدعوة إلى التوحيد ومحو الشرك ، فإذا ما ظهرت كلمة التوحيد وخفتت صوتُ الشرك صَلُحَ حالُ الناس حكاماً ومحكومين

جـ ـ ويقول ـ رحمه الله ـ

« فإن أراد أحدٌ اليوم أن يُطهر الأرض ويستبدل فيها الصلاح بالفساد والأمن بالاضطراب والأخلاق الزكية بالإباحية ، والحسنات بالسيئات لا يكفيه أبداً أن يدعوهم إلى الخير ويعظهم بتقوى الله وخشيته ويرغبهم في الأخلاق الحسنة ، بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الإنسانية الصالحة ما يتمكن من جمعه ، ويجعل منها كتلة متضامنة وقوة جماعية تمكنه من انتزاع زمام الأمر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا ، وإحداث الانقلاب المنشود في زعامة الأرض وإمامتها »

فكيف بالمساكين الذين أعرضوا عن منهج الأنبياء وتركوا أعظم الأدواء وهو الشرك يفتك بالأمم ولم يدخل هذا في حسابهم ثم يريدون أن يجمعوا من العناصر الصالحة كتلة متضامنة وقوة جماعية ليصلوا بهم إلى ما رسموه لأنفسهم وجعلوه مطمح أبصارهم؟!!.

فقل لي بربك من أين تأتي بهذه العناصر الصالحة ونحن قد تخلينا عن عقيدة الأنبياء ومنهجهم في التربية والدعوة ؟!! أتهبط علينا من السماء؟!!.

د ـ ثم يقول الاستاذ المودودي رحمه الله

« إن مسألة القيادة والزعامة ، إنما هي مسألة المسائل في الحياة الانسانية ، وأصل أصولها ؟

وأهمية هذه المسألة وخطورة شأنهاليست مستحدثة في هذا العصر وإنما هي مقرونة ومنوط بها منذ أقدم الأزمنة وناهيك من شاهد ، بالقول السائر

« الناس على دين ملوكهم »[١]

ومن ثم تكـرر في الحديث « إن علماء الأمـة وكبراءهـا هم المسؤلون عن إصلاح شأنها وفساد أمرها »[٢]

هكذا في نظر هـذا المفكر الكبـير واشهد الله لـو أنني سمعتها من أنسـان صادق لظننته واهما على هذا العبقري ولكن ماذا أقول ؟ وماذا يقول غيري وهو في كتابه الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية الذي ألقاه محاضرة في جمع من اعضاء الجماعة الاسلامية وأنصارها والمتأثرين بهـا ألقاهـا في مؤتمر حـاشد منـذ أكثر من أربعين سنة ويتداوله الناس وخصوصا أتباعه بكل حفاوة وتقدير منذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا

إن مسألة المسائل هي ما جاء به جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهي مسألة التوحيد والإيمان وقد لخصهـا الله في قولـه ﴿ **وما ارسلنـا من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾

﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ولقد أوحي إليـك وإلى الذين من قبلك لئن اشـركت ليحبـطن عملك ولتكـونن من الخاسرين* بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾

هذه هي مسألة المسائل ومن أجلها دار الصراع بين الأنبياء والأمم الضالـة ومن أجلها اغرق من اغرق ودمر من دمر وخسف بمن خسف به وعذب من عذب وقد سقنا أدلتها الكثيرة فيما سبق فارجع واقرأ

---

(١) الأسس الأخلاقية ص (٢١ ـ ٢٢)

(٢) اعجب لهذا الاستدلال على اخطر مسألة (مسألة المسائل) بقول سائر وكلام لا يدري قائله ظنه حديثا

هـ ـ ثم يقول غفر الله له

«غاية الدين الحقيقية : إقامة نظام الإمامة الصالحة الراشدة »[1]

أقول إن غاية الدين الحقيقية والغاية من خلق الجن والإنس والغاية من بعثة الرسل وإنزال الكتب هي عبادة الله وإخلاص الدين له.قال تعالى

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدون ﴾ .

﴿وَمآ أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لآ إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاْعْبُدونِ ﴾ .

﴿ آلـرٓ كِتـابٌ أُحْكِمَتْ آيـاتُـهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَـدُنْ حَكِيمٍ خَبيـرٍ * أَنْ لاَ تَعْبُدوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيْرٌ وَبِشيرٌ ﴾ .

وحيث إن هـذا هو تصـور الأستاذ المـودودي للقيادة والـزعامـة والإمامـة هي غاية الـدين الحقيقية ، وهي مسـألة المسـائل في الحيـاة الإنسانيـة وأصل أصـولها ، فمن المنـاسب أن أسوق هنـا رد شيخ الإسـلام ابن تيميـة على ابن المـطهر الحلـي أحـد الروافض الإمـامية الـذي بالـغ في شـأن الإمـامـة وغـلا فيها

قال شيخ الإسلام « فصل

قـال المصنف الرافضي أمـا بعد فهـذه رسالـة شريفـة ومقالـة لـطيفـة اشتملت على أهم المطالب في أحكام الـدين وأشرف مسـائل المسلمين وهي مسألة الإمـامة ، التي يحصـل بسبب إدراكها نيـل درجة الكـرامة ، وهي أحـد أركــان الإيمـان المستحق بسببــه الخلود في الجنـان ، والتخلص من غضب الرحمن »[2]

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ :

---

(١) الأسس الأخلاقية (ص ٢٢).

(٢) المنهاج (١/ ٢٠).

«فيقال الكلام على هذا من وجوه

أحدها أن يقال إنَّ القائل أن مسألة الإمامة أهم المطالب في أحكام الدين وأشرف مسائل المسلمين ، كاذب باجماع المسلمين سنيهم وشيعيهم ، بل هو كفر فإن الإيمان بالله ورسوله أهم من مسألة الإمامة وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام

فالكافر لا يصير مؤمناً حتى يشهد أن لا إلٰه إلَّا الله وأن محمداً رسول الله وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ـ ﷺ ـ الكفار أولاً كما استفاض في الصحاح وغيرها أنه قال :

« أُمِرْتُ أَنْ أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلَّا الله وأني رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمآءهم وأموالهم إلَّا بحقها »[1]

وقد قال تعالى

﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَد فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلهم ﴾ [التوبة ٥].

وكذلك قال لعلي ـ رضي الله عنه ـ لما بعثه ؛ وكذلك كان النبي ـ ﷺ ـ يسير في الكفار فيحقن دماءهم بالتوبة من الكفر ، لا يذكر لهم الإمامة بحال

وقد قال تعالى بعد هذا

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَة وَآتَوا الزَّكَاةَ فَإِخْوانُكم في الدِّين ﴾ [التوبة ١١]

---

(١) تقدم تخريجه ص ٦٠

فجعلهم إخواناً في الدين بالتوبة ، فإن الكفار في عهد رسول الله - ﷺ - كانوا إذا أسلموا أُجْرى عليهم أَحكام الإسلام ، ولم يذكر لهم الإمامة بحال

ولا نقل هذا عن الرسول أَحَدٌ من أهل العلم ، لا نقلاً خاصاً ولا عاماً ، بل نحن نعلم بالإضطرار أن النبي - ﷺ - لم يكن يذكر للناس إذا أرادوا الدخول في دينه الإمامة لا مطلقاً ولا معيناً ، فكيف يكون أهم المطالب في أحكام الدين ثم

الثاني - أن يقال : الإيمان بالله ورسوله في كل زمان ومكان أعظم من مسألة الإمامة ، فلم تكن في وقت من الأوقات ، لا الأهم ولا الأشرف

الثالث : أن يقال ، فقد كان يجب بيانها من النبي - ﷺ - لأمته الباقين بعده كما بين لهم أمور الصلاة والزكاة والصيام والحج وعيَّن أمر الإيمان بالله وتوحيده ، واليوم الآخر.

ومن المعلوم أنه ليس بيان مسألة الامامة في الكتاب والسنة ببيان هذه الأصول

ثم قال « وأيضاً - فمن المعلوم أن أشرف مسائل المسلمين ، وأهم المطالب في الدين ينبغي أن يكون ذكرها في كتاب الله تعالى أعظم من غيرها ، وبيان الرسول لها أولى من بيان غيرها ، والقرآن مملوء بذكر توحيد الله تعالى ، وذكر أسمائه ، وصفاته وآياته وملائكته ، وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقصص ، والأمر والنهي ، والحدود والفرائض ، بخلاف الإمامة ، فكيف يكون القرآن مملوءً بغير الأهم الأشرف »[1]

ـ وأيضاً فإن الله تعالى قد علق السعادة بما لا ذكر فيه للإمامة ، فقال

---

(١) المنهاج (١/ ٢١).

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء ٩٩]

وقال ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ . ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

فقد بين الله في القرآن أن من أطاع الله ورسوله كان سعيداً في الآخرة ومن عصى الله ورسوله وتعدى حدوده ، كان معذباً ، وهذا هو الفرق بين السعداء ، والأشقياء ، ولم يذكر الإمامة .

فإن قال قائل إن الإمامة داخلة في طاعة الله ورسوله؟! قيل نهايتها أن تكون كبعض الواجبات ، كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما يدخل في طاعة الله ورسوله ، فكيف تكون هي وحدها أشرف مسائل المسلمين ، وأهم مطالب الدين؟! ». (١)

قال شيخ الإسلام

« الوجه الخامس قوله « وهي أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود في الجنان »

فيقال من جعل هذا من أركان الإيمان إلا أهل الجهل والبهتان؟! وسنتكلم إن شاء الله على ما ذكره من ذلك والله تعالى وصف المؤمنين وأحوالهم ، والنبي ـ ﷺ ـ قد فَسَّرَ الإيمان ، وذكر شُعبَهُ ، ولم يذكر الله ولا رسوله الإمامة في أركان الإيمان ، ففي الحديث الصحيح حديث جبريل لما أتى النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ،

---

(١) المنهاج (١/٢٨ ـ ٢٩).

قال له

« الإسلام أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت ، قال والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » ولم يذكر الإمامة

وقال « والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

وهذا الحديث متفق على صحته متلقى بالقبول أجمع أهل العلم بالنقل على صحته

وقد أخرجه أصحاب الصحيح من غير وجه ، فهو من المتفق عليه من حديث أبي هريرة[1] وفي أفراد مسلم من حديث ابن عمر[2]

وقد قال الله تعالى

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِيْنَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون * الَّذِيْنَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال ٢ ـ ٤]

فشهد لهؤلاء بالإيمان من غير ذكرٍ للإمامة

---

(١) أخرجه البخاري ٦٥ ـ كتاب التفسير، تفسير سورة لقمان حديث (٤٧٧٧)، ومسلم ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث (٥ ـ ٧) وابن ماجه المقدمة ، حديث (٦٤).

(٢) أخرجه مسلم ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث (١ ـ ٤). وأبو داود ٣٤ ـ كتاب السنة ، ١٧ ـ باب في القدر ، حديث (٤٦٩٥) والترمذي ٤١ ـ كتاب الإيمان حديث (٢٦١٠) (٥/٦)..

وقال تعالى

﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّـذِينَ آمَنُوا بِـاللَّهِ وَرَسُولِـهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَـابُوا وَجَـاهَـدُوا بِـأَمْـوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيْـلِ اللَّهِ أُولَئِـكَ هُمُ الصَّـادِقُـون ﴾ [الحجـرات ١٥] فجعلهم صادقين في الإيمان من غير ذكرٍ للإمامة

وقال تعالى

﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّـوا وُجُوهَكُمْ قِبَـلَ المَشْرِقِ وَالمَغْـرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ واليَوم الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ والكِتَابِ وَالنبيين وآتَى المَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي القربى وَاليَتَامى والمَسَاكِينَ وابنَ السَّبِيلِ والسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقاب وأَقَامَ الصَّلاة وآتَى الزَّكاةَ والمُوفونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَآءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدقوا وأُولَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ [البقرة ١٧٧]

ولم يذكر الإمامة

وقال تعالى

﴿ ألم * ذَلِـكَ الكِتَـابُ لَا رَيْبَ فِيْـهِ هُـدىً لِلْمُتَّقِين * الَّـذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّـلَاة وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُون * وَالَّـذِينَ يُؤْمِنُون بِمَـآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوْقِنُـون * أُولَئِكَ عَلَىٰ هُـدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾ [البَقَرة ١ ـ ٥]

فجعلهم مهتدين مفلحين ولم يذكر الإمامة .

ــ وأيضـاً ــ فنحن نعلم بالإضـطرار من دين محمد بن عبـد الله ـ ﷺ ـ أنَّ الناس كانوا إذا أسلموا لم يجعـل إيمانهم مـوقوفاً على معرفـة الإمامـة ولم يذكر لهم شيئاً من ذلك ، وما كان أحدُ أركانِ الإيمـانِ لا بد أن يبيِّنـه الرسـول لأهل الإيمان ليحصل لهم به الإيمان

فإذا عُلِمَ بالإضـطرار أنَّ هذا ممـا لم يكن الرسـول يشترطـه في الإيمان

علم أن اشتراطه في الإيمان من أقوال أهل البهتان

فـإن قيـل قـد دخلت في عمـوم النص ، أو هي من بـاب مـا لا يتم الواجب إلَّا به أو دل عليها نص آخر .

قيل هذا كله لو صح لكـان غايتـه أن تكون من بعض فـروع الدين لا تكـون من أركـان الإيمـان ، فـإن ركن الإيمـان مـا لا يحصـل الإيمان إلَّا بـه كـالشهادتين ، فـلا يكـون الـرجـل مؤمنـاً حتى يشهـد أن لا إلـه إلَّا الله ، وأن محمداً رسول الله

فلو كـانت الإمامـة ركنا في الإيمـان لا يتم إيمانُ أحـد إلَّا به لـوجب أن يبينه الرسول - ﷺ - بياناً عاماً قاطعاً للعذر كما بين الشهادتين ، والايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الاخر فكيف ونحن نعلم بالاضطرار من دينه ، ان الذين دخلوا في دينه افواجاً لم يشترط على أحد منهم في الايمان بالامامة لا مطلقاً ولا معيناً [1] »

١ - لقد اطلت النفس في نقل كلام ابن تيمية رحمه الله لامامته وجلالته وثقة الناس بقوة فهمه للاسلام وعمقه واعتقادهم في اخلاصه

٢ - لتشابه دعوى المودودي ودعوى الرافضي بل مع الاسف الشديد يرى القارىء ان دعوى الاستاذ المودودي اعظم اذ الشيعي يقول انها اهم المطالب في إحكام الدين ولم يقل في اصول الدين ويقول « وهي احد اركان الايمان اما صاحبنا فقد جعلها « مسألة المسائل في الحياة الانسانية واصل اصولها » وجعلها « غاية الدين الحقيقية وجعلها غاية مهمة الانبياء كما سيأتي

٣ - قصدي اسداء النصيحة لشباب المسلمين ليتمسكوا بهدي نبيهم ومن نصيحتي لهم ان لا يقارنوا بين ربيع والمودودي بل يجب ان يرفعوا منزلة القرآن كلام ربهم وان يرفعوا منزلة سنة نبيهم فلا يقارونوا بينهما وبين كلام احد من البشر مهما بلغ من المكانة والمنزلة فهذا هو مقتضى الايمان وبرهان صدقه

---

١ - المنهاج (١/٣٢ - ٣٣)

نظرة علماء الاسلام الى الامامة وادلتهم على وجوبها

قال الامام ابو الحسن الماوردي - رحمه الله : -

« الامامة موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم لها في الامة واجب بالاجماع ، وان شد عنهم الاهم واختلف في وجوبها هل وجبت بالعقل او بالشرع ؟

فقالت طائفة وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم وقد قال الافوه الاودي

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سـراة اذا جهـالهم سـاروا

وقالت طائفة بل وجبت بالشرع دون العقل لان الامام يقوم بامور شرعية قد كان مجوزا في العقل ان لا يرد التعبد بها ، فلم يكن العقل موجبا لها

ثم اجتمع على وجوبها بقول الله تعالى

﴿ يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ﴾

قال ففرض علينا طاعة اولى الامر فينا وهم الائمة المتأمرون علينا ثم قال روى هشام بن عروة عن ابي صالح عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

« سيليكم بعدي ولاة فيليكم البررة ويليكم الفاجربفجوره ، فاسمعوا لهم واطيعـوا في كل مـا وافق الحق فـان احسنـوا فلكم ولهم وان اساؤا فلكم وعليهم »

قال فاذا ثبت وجوب الامامة ففرضها على الكفـاية ، كـالجهاد وطلب العلم[1] »

وقال القاضي ابو علي - رحمه الله « نصبة الامام واجبة » وقد قال الامام احمد - رضي الله عنه في رواية محمد بن عوف بن سفيان الحمصي الفتنة اذا لم يكن امام يقوم بامر الناس » والوجه فيه ان الصحابة لما اختلفوا في السقيفة ،

---

١ - الاحكام السلطانية (ص ٥ - ٦)

فقالت الانصار : منا امير ومنكم امير ودفعهم ابو بكر وعمر رضي الله عنهما وقالوا « ان العرب لا تدين الا لهذا الحي من قريش ورووا في ذلك اخبارا ، فلولا ان الامامة واجبة لما ساغت تلك المحاورة وتلك المناظرة عليها ، ولقال قائل ليست بواجبة لافي قريش ولا في غيرهم [1]

فانت ترى دعواهم في الامامة لا تتعدى ان تكون وسيلة فهي لحراسة الدين وسياسة الدنيا وفي دليل وجوبها نزاع اهو العقل ام الشرع ونحن نقول بوجوبها ولكن الدليلين اللذين ساقهما الماوردي ليسا نصا في الامامة فهما اعم من الدعوى في وجوب الطاعة لأمراء ثبتت امارتهم فعلا وكذلك الحديث ولعل ابا يعلي عدل عنهما لما يرى من عدم وضوح الدلالة فيهما وعلى كل حال فالقضية التي هذا شأنها وقد اختلف في ادلة وجوبها كيف يقال فيها انها غاية الدين الحقيقية وغاية مهمة الأنبياء إلى اخر المبالغات التي قيلت في شأنها مما ضخمها وأعطاها أضعاف أضعاف حجمها وأضعف أمر العقيدة والدين نفسه وقلل من شأنه وشأنها

جـ ـ ويقول المودودي ـ رحمه الله ـ

« ولاجل ذلك ما زالت الغاية المنشودة من رسالة انبياء الله عليهم السلام في هذه الدنيا ان يقيموا فيها الحكومة الاسلامية ، وينفذوا فيها ذلك النظام الكامل للحياة الانسانية الذي جاؤا به من عند الله »[2]

اقول اولا ـ ان الحديث عن رسل الله وانبيائه لا يجوز ان يكون عن طريق الاستنتاج والاستنباط السياسي وقصص الانبياء وتاريخهم من الامور الغيبية التي لا يجوز الخوض فيها الا في حدود الوحي الذي اوحاه الله الى محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) الاحكام السلطانية (ص ١٩)
(٢) الاحكام السلطانية (ص ١٩)

قال تعالى في اول قصة يوسف عليه السلام

﴿ نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين ﴾[1]

وقال تعالى في اخر قصة يوسف عليه السلام ﴿ ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ اجمعوا امرهم وهم يمكرون ﴾ [2]

وقال تعالى ـ عقب قصة نوح عليه السلام ـ

﴿ تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين ﴾

ويشتد هذا المنع ويزداد حرمته اذا خالف هذا الاستنتاج ما اخبر الله به عنهم.

فقد بين الله غاياتهم اجمالا ، فقال

﴿ ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [3]

وقال تعالى

﴿ وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون ﴾ ثم

ويحدث عن بعضهم تفصيلا ، كنوح وابراهيم وهود وصالح ، وقد تحدثنا عن منهجهم سابقا . وسردنا الآيات التي تحدد منهجهم وغاياتهم وهي تطابق تماما ما ذكره الله عنهم إجمالا من الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره مع الدعوة إلى الخير وليس في القرآن ولا في السنة ما يؤيد ما زعمه المودودي في قوله

« لاجل ذلك ما زالت الغاية المنشودة من رسالة انبياء الله عليهم السلام في

---

(١) سورة يوسف ، الاية ٣

(٢) سورة يوسف ، الاية ١٠٢

(٣) سورة النحل ، الاية ٣٦

هذه الدنيا ان يقيموا فيها الحكومة الاسلامية » او الالهية كما نقلها النـدوي عن المودودي فمن كانت عنده ادلة واضحة على هذه القضية الخطيرة من الكتاب والسنة فليأت بها وعلينا الايمان والاتباع

ثانيا ـ عاش الاستاذ المودودي ـ رحمه الله ـ في عصر الصراع السياسي والحزبي ، وبلغ التنافس والصراع عـلى الحكم اوجه في الغـرب والشرق ، وبحكم قيادته وريادته السياسية والحزبية خيل اليه أنه لابد ان يكون الانبياء اشد الناس عزما وجدا وجهادا في الوصول الى الحكم واحراز مقاليد السلطة

وكلامه الآتي يؤكد ما اقول

قال « **نوعية عمل النبي** ، ولتشييد هذه الحضارة والمدنية في الارض ارسل الله رسله تترى ، وذلك بان كل حضارة في هذا العالم ـ عدا الحضارة الرهبـانية جاهلية كانت أم اسلامية ، اذا كان بيدها نظرية جامعة بشأن الحياة الانسانية ، ومنهاج شامل ، لتدبير امور هذه الدنيا ، فانها تقتضي بحكم طبيعتها **ان تستولي على الحكم وتمتلك ازمة الامور** وتشكل الحياة الانسانية على طرازها المخصوص

وبدون ارادة الحكم ، **لا معنى للدعوة الى نظرية مـا ولا معنى للتحليل والتحريم والتشريع**

اما الراهب في هذه الدنيا ، فلا يريد ان يمارس شؤونها ، وانما همه الشاغل ان يبلغ غاية نجاته الوهمية ، بسلوك طريقة معينة تمر به حائدة عن الدنيا وما فيها ، ولذلك لا يحتاج الى السلطة والحكم ولا يطلب من ذلك شيئا

ولكن الذي يأتي داعيا الى طريق مخصوص لمعالجة شؤون هذه الدنيا ويعتقد ان في اتباع الانسان لهذا الطريق ، فلاحه ونجاحه .

فلابد أن يسعى ويجتهد لأحراز مقاليد السلطة والحكم فانه ما لم يتمكن من القوة المطلوبة لتنفيذ طريقته المخصـوصة ، لا يمكن ان تقـوم لها قـائمة في عـالم الواقع »[1]

---

(١) تجديد الدين (ص ٣٢ ـ ٣٣) وكان قد تحدث عن حضارة الانبياء ومدنيتهم وتوسع فيها وفي بعض ما قاله حق وبعضه فيه نظر يحتاج الى ادلة عن الذي لا ينطق عن الهوى ومن تلكم

لقد درس المودودي الحضارة والمدنية المعاصرة بكل شعبها وتفاصيلها او غالبها واعتقد ان للانبياء حضارة ومدنية تضم مثل هذه الشعب والتفاصيل الموجودة في التنظيمات المدنية الحالية الا انها بشعبها وتفاصيلها تختلف عن المدنيات والحضارات الجاهلية ثم بنى على هذا الاعتقاد ان كل حضارة بيدها نظرية جامعة بشأن الحياة ومنهاج شامل لتدبير امور الدنيا فانها تقتضي بحكم طبيعتها ان تستولي على الحكم وتمتلك ازمة الامور

والانبياء جاؤا بحضارة ومدنية من هذا النوع فلابد ان تستولي حضارتهم ومدنيتهم على الحكم وتمتلك ازمة الامور .

ولابد ان يسعوا ويجتهدوا لاحراز مقاليد السلطة واذن « فما زالت الغاية المنشودة من رسالة الانبياء في هذه الدنيا ان يقيموا فيها الحكومة الاسلامية وينفذوا فيها ذلك النظام الكامل للحياة الانسانية الذي جاؤا به من عند الله »

ولعله يتضح للقارىء ان هذه التقريرات قائمة على القياسات والاستنتاجات الفكرية والسياسية ، وليست قائمة على البراهين القرآنية والنبوية ، والمجال مجال الوحي الالهي لا مجال الاكتشافات الفكرية والسياسية

وقد خيل اليه ان الناس قسمان فقط

اما راهب همه الشاغل ان يبلغ غاية نجاته الوهمية الخ وحاشا الانبياء ان يكونوا من هذا النوع ، وقد يشبههم في نظر السياسيين ـ العلماء والدعاة المعاصرون الذين لا يركبون امواج السياسة ولا يخوضون غمارها وانما يسلكون منهج الانبياء في الدعوة الى الله والى توحيده واخلاص العبادة له والتحذير من الشرك والفسق والبدع بالحكمة والموعظة الحسنة وليسوا بمعصومين من الخطأ

الامور قوله « وتنظيم المناصب والوظائف في شعب الحكومة المدنية واصول القوانين واستنباط القواعد التفصيلية من تلك الاصول ونظام العدالة والشرطة والاحتساب ، وجباية الضرائب وشعبة الاقتصاد والاشغال العامة ، والصناعة ، والتجارة ، ونظام النشر والاعلان والتعليم والتربية وتدبير سائر اقلام الحكومة وتدريب الجيوش وتنظيمها ، وشؤون الصلح والحرب والعلاقات الدولية والسياسة الخارجية »

واما صاحب طموح سياسي وفكر حضاري يريد ان ينهض بامته الى ارقى مستويات الحضارة ويريد ان يؤسس لامته اقوى دولة[1]

والانبياء اسمى الناس وارقاهم فلابد ان يكونوا من هذه الطبقة الممتازة

وفاته ان الانبياء قسم مستقل لا يدخل في هؤلاء ولا في اولئك هم اناس متميزون منزهون عن حماقات الرهبان وجهلهم وعن اطماع السياسيين ومكرهم واساليبهم الشيطانية التي يتوصلون بها الى الحكم فهم انزه الناس نفوسا عن المطامع وارقى الناس عقولا وازكاهم اخلاقا واطهرهم عنصراً وانسابا اختارهم الله لهداية البشر وانقاذهم من الضلال فخاضوا ميادين الدعوة الى الله بكل اخلاص وتجرد لا يريدون على ذلك اجراً من مال او جاه او ملك انما يريدون وجه الله والدار الاخرة فقط وصبروا على صنوف من الاذى التي لا يحتملها سواهم

ويقول

« ولذلك سعى كل نبي وكل رسول لاحداث الانقلاب السياسي ، فمنهم من اقتصرت مساعيه على تمهيد السبيل واعداد العدد كابراهيم عليه السلام ، ومنهم من اخذ فعلا في الحركة الانقلابية ، ولكن انتهت رسالته قبل ان تقوم على يده الحكومة الالهية ، كعيسى عليه السلام ومنهم من بلغ بهذه الحركة منازل الفوز والنجاح كموسى عليه السلام ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

اقول اولا ـ ان عدد الانبياء والرسل يزيد على عشرين ومائة الف ولم يقص الله علينا الا قصة حوالي خمسة وعشرين نبيا ورسولا في القرآن قال تعالى

﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ﴾

وقال تعالى

﴿ ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾

---

١ ـ ولو كانت خالية من التوحيد بحجج بانواع البدع والخرافات

والواجب علينا ان نؤمن بجميع الانبياء والرسل وكتبهم اجمالا وبما ذكره الله منهم ومن كتبهم تفصيلا

وما سكت عنه منهم ومن قصصهم ولم يخبر به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم فهو من امور الغيب

واعتقد ان مثل هذا التعبير « ولذلك سعى كل نبي وكل رسول لاحداث الانقلاب السياسي [1] » ليس من العلم الموروث عن خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم - فهو من اعظم الامور الغيبية التي اخفاها الله عن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فكيف يعلمها غيره بل نقول كيف يستجيز المسلم الحديث عنها وقد قال تعالى **﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا ﴾**

وقال تعالى

﴿ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،والاثم والبغي ،بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾

ثانيا - اعتقد انه لا يجوز شرعاً ان يطلق على دعوات الانبياء الحكيمة وهدايتهم الرحيمة المشتملة على الحكمة والعلم والثبات والصبر والتأني

لا يجوز ان يطلق على هذه الدعوات انها محاولة انقلابات سياسية ، لان الانقلابات السياسية ، تقوم على المكايد والدسائس والمؤامرات التي لا يقوم بها الا اناس لا يبالون بسفك الدماء واهلاك الحرث والنسل والافساد في الارض

ثالثا - ان هذا التفسير لمهمة الانبياء وغايتهم في غاية الخطورة لتأثيره الخطير على شباب الامة المساكين لانهم قد يقولون اذا كان الانبياء زعماء سياسيين ، وقادة حركات انقلابية فلماذا لا يكون اتباعهم ايضا سياسيين انقلابيين ويسلكون الى غايتهم ما تتطلبه الانقلابات السياسية من التخطيط والتدابير ، وهل سيكونون معصومين في احداث الانقلابات السياسية

---

١ - تجديد الدين (ص ٣٥)

رابعا ـ لا ادري ما يريد الاستاذ المودودي بقوله

« فاقتصرت جهود بعضهم على تمهيد السبيل واعداد العدد (وحكى الندوي عنه « على تهيئة الارض كسيدنا ابراهيم هل يريد انه وضع خططا سياسية وانقلابية لمن يأتي بعده من الانبياء والقادة السياسيين او يريد شيئا اخر وعلى كل حال هذا يعطي صورة غريبة عجيبة رهيبة عن الانبياء لم يصورها القرآن ولا السنة ولا عرفها علماء الاسلام برأ الله الانبياء منها ونزههم عنها

ان قصة ابراهيم مثلا واضحة في الكتاب والسنة وقد كررها الله في القرآن وكلها كانت جهاداً في سبيل التوحيد وفي تحطيم الاوثان بالحجة والبرهان وباليد عندما الجيء الى ذلك وبعد ان بلغ البلاغ المبين واقام الحجج القاهرة الدافعة على المشركين المعاندين حكومة وشعبا قام بتحطيم معبو داتهم واوثانهم فاخذهم الغضب لاوثانهم فبطشوا به وأرادوا ان يعاقبوه اشد العقاب فاججوا له النار ثم القوه فيها « قالوا حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين »

فانقذه الله من كيدهم ونجاه من مكرهم ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاما على ابراهيم ﴾

ثم لما بلغ عنادهم مداه وانقطع امله من استجابتهم لدعوة الله تركهم وغادرهم مهاجراً الى الله فآمن له لوط وقال :(اني مهاجر الى ربي انه هو العزيز الحكيم)

ولم يذكر الله عنه شيئا من الانقلابات السياسية ولا اعداد العدد لها ولا تمهيد السبيل اليها

ولنكمل قصة ابراهيم عليه السلام ، كانت هجرته الى الشام ثم بعد زمن ذهب بزوجته هاجر وابنه اسماعيل الى مكة وهي انذاك خالية من السكان ومن كل اسباب الحياة حتى الماء ، وترك زوجته وولده باذن من الله ، وعاد الى الشام ، فانطلق حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه ، فقال

﴿ ربنَـا إنِّي أسكنتُ مِن ذُرِيتي بوادٍ غيرِ ذِيْ زرعٍ عنْدَ بَيْتِكَ المحرم ﴾

ثم بين الغاية من ذلك فقال ﴿ ربنَا ليقيموا الصلاة ربنا فـاجعل أفئـدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾.

وقـد زار إبراهيم عليـه السلام ابنـه اسماعيـل عليـه السـلام مـرتين فلم يجـده إذ يصادف خـروجه لابتغـاء الرزق ، فيعـود إبراهيم ادراجـه ، ثم زاره في الثالثة فـوجده ، فلمـا رآه قام إليـه فصنعا مـا يصنع الـوالد بـالولـد والولـد بالوالد ثم قال : يا اسماعيل ! إن الله أمرني بأمر .

قال فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينني ؟.

قـال : وأعينك ، قـال : فإن الله أمـرني أن أبني ها هنـا بيتاً وأشـار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال فعند ذلك رفعا القـواعد من البيت فجعـل اسمـاعيل يـأتي بالحجـارة وإبراهيم يبني واسمـاعيل يناوله الحجـارة ، وهمـا يقولان ﴿ ربنا تَقَبَّل مِنَّا إنَّك أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾(١)

فهـذه قصة إبـراهيم في الكتاب والسنـة وهو يـدعو قـومـه إلى الله ويقيم عليهم الحجـج ثم يحطم أوثـانهم ثم يهاجـر ، وهذه رحـلاتـه من الشـام إلى ولده إسماعيل بمكة بـواد غير ذي زرع وقـد وضع ولـده في هذا الـوادي وبيّن الغاية من وضعه فيه ثم لما شب ولده قـاما ببنـاء البيت وقال الله لهمـا ﴿ أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾

فهل يؤخذ من هذه الأعمال هجـرته من بـلاده بلاد الحضـارة إلى باديـة الشـام ثم وضعـه ولـده في بلد غيـر ذي زرع خـال من السكـان ومن أسبـاب الحياة ، ومن غايته التي أعلنها ﴿ ربنَا إنِّي أسكنت مِن ذريتي بوادٍ غـير ذِي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنَا ليقيموا الصَّلاة ﴾ هل يؤخذ من هذه الأعمال أنه كان يمهد

---

(١) مختصر من حديث طويل أخرجه البخاري ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ٩ ـ باب يزفون النسلان في المشي ، حديث (٣٣٦٤).

السبيل ويعد العدد لاحداث انقلاب سياسي ؟!!

ومتى قام عيسى فعلاً بـالحركـة الإنقلابيـة؟! وكيف توقف أو أُحبط هـذا الإنقلاب؟!! وما هو البرهان على هذا القول الخطير؟!

وكيف لم يبلغ إلاَّ موسى ومحمد فقط إلى منـازل الفـوز والنجـاح؟!! مع أنه قد سعى كل نبي وكل رسول لإحداث الإنقلاب السياسي ـ كما يزعم المـودودي ـ فكيف لم يبلغـوا إلى منـازل الفـوز والنجـاح وهم يـزيـدون على عشرين ومائة ألف ؟!

ألا تـرى معي إلى ثمار الغلو المـرة وإلى نتائجـه الصعبة الخـطيرة التي تـزلزل الإيمـان والعقيدة؟! فـإذا كان اثنـان فقط من أعداد الأنبيـاء الهـائلة قـد وصلا إلى منازل الفلاح والفوز أفـلا يحكم القارىء الكـافر والضعيف الإيمـان والجاهل على الأنبياء الآخرين بـالخيبة والخسـران؟ وحتى المؤمن القوي ألا يخـاف عليه أن يهتـز إيمانـه ويضـطرب إذ كيف ينجـح الكفـرة من الأكـاسـرة والقياصرة والفـراعنة وغيـرهم من الكفرة في المـاضي والحاضـر ويصلون إلى ما يصبون إليه من إقامة الدول العـظيمة والحضـارات الراقيـة ولم تصل جهـود الأنبياء إلى منازل الفوز والنجاح ؟!!

إذا كنا نحن نرسم للأنبياء هذه الغايـات ونحكِّمُ في دعواتهم وأعمـالهم الخيالات ، فإن النتائج ستـأتي صعبة جداً والمشاكـل ستكون عـويصة يصعب حلها ، وإذا كنا نعتمد في تحديـد غايـاتهم وفي رسم أعمالهم على كتـاب الله الخالد وسنة رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى .

وقـد حدد الله غـاياتهم وبين دعـواتهم فقال ﴿ ولقـد بعثنا في كـل أمة رسولاً أن آعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾

وقال تعالى ﴿ ومـا أرسلنا من رسـول إلاَّ نوحي إليـه أنه لا إلـه إلاَّ أَنَا فآعبدون ﴾

وقـال تعالى ﴿ رسـلاً مبشرين ومنـذرين لئـلا يكـون للنـاس على الله

حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾.

فهـذه مهمتهم وهذه غـاياتهم دعـوة إلى توحيـد الله وتحذيـر من الشـرك والمعاصي، وتبشير المؤمنين وانذار الكافرين المعاندين.

وقد أدوا واجبهم ووصلوا جميعاً إلى منـازل الفلاح والنجـاح، ونصرهم الله على أعـدائهم في الدنيـا وينصرهم غـداً يوم يقـوم الأشهـاد والكـافـرون ـ بهـذه المقاييس الصحيحيـة ـ هم الفاشلون الأخسـرون المغـلوبون في الـدنيـا والآخرة

قـال تعـالى: ﴿ وَلَقَـدْ سَبقت كلمتنـا لعبـادنـا المـرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ [الصافات ١٧١ ـ ١٧٣]

وقـال تعـالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنـا ورسلي إنَّ الله لقـوي عـزيـز ﴾ [المجادلة ٢١]

وقـد أخبر الله كيف انتصـر الأنبياء على أعـدائهم الكـافـرين في قصص كثيرة من القرآن

قال تعالى عن نوح عليه السلام:

﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبـواب السماء بمـاء منهمر * وفجـرنا الأرض عيـوناً فـالتقى الماء على أمـر قـد قـدر * وحملنـاه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقـد تركنـاها آيـة فهل من مدكر ﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٥]

وقـال تعالى ﴿ كـذبت ثمود وعـاد بالقـارعة * فـأمـا ثمـود فـاهلكـوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصـر عاتيـة * سخرهـا عليهم سبع ليـال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خـاوية * فهـل ترى لهم من باقية * وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكـات بالخـاطئة * فعصـوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ [الحاقة ٤ ـ ١٠]

وقال تعالى ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما * وعاداً وثمودا وأصحاب الرسِّ وقروناً بين ذلك كثيراً * وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ﴾ [الفرقان ٣٧ - ٣٩]

فهذه انتصارات ساحقة للمرسلين وفوز وفلاح مبين وهزائم وخسائر ودمار وتتبير للكافرين

فبهذه الموازين والمقاييس الربانية والقرآنية الصحيحة الحقة بالأنبياء جميعاً وصلوا إلى منازل الفوز والفلاح لأنهم جميعاً أدوا واجبهم وبلغوا رسالات ربهم التي كلفوا بتبليغها وكانت نهاية أعدائهم ما قصه الله عنهم وبالمقاييس السياسية أو الخيالية أو قل ما شئت لم ينجح إلاَّ محمد وموسى عليهم السلام

هذا نقوله على منطق هؤلاء ، وإلاَّ فنحن نبرىء موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام من السعي لإحداث إنقلاب سياسي وننزه نجاحهما وفلاحهما أن يكون قام على هذا الأساس

نأتي إلى قصة موسى عليه السلام وقصة انتصاره وفلاحه لقد نصره الله حقاً على فرعون وجنده النصر المبين ، قال تعالى

﴿ ولقد مننا علىٰ موسىٰ وهارون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم * ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ﴾

كيف تم هذا النصر؟ هل كان عن طريق إحداث انقلاب سياسي توصل به موسى إلى إعتلاء عرش مصر؟ .

الجواب الحق هو ما أخبرنا الله به في القرآن العظيم

أن الله اصطفى موسى برسالاته وبكلامه ، وكلفه بدعوة فرعون إلى الله فامتثل أمر ربه ، وأقام الآيات البيِّنات على صدق رسالته ﴿ فأراه الآية

الكبرى * فكذب وعصىٰ * ثم أدبر يسعى فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات ٢٠ ـ ٢٤]

وقال تعالى

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلاَّ في ضلال ﴾ [غافر : ٢٣ ـ ٢٥]

وزاده قومه إغراءً بموسى وقومه ، كما قال تعالى

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ [الأعراف : ١٢٧].

فوقف موسى عليه السلام إزاء هذا الطغيان وفيه عبرة للدعاة إلى الله

﴿ قال موسى استعينوا بالله واصبروا إنَّ الأَرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ [الأعراف ١٢٨]

وبلغ السيل الزبا ورفع بنو إسرائيل عقيرتهم إلى موسى

﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ [الأعراف ١٢٩]

انظر إلى تربية الأنبياء وإلى صبرهم في مواجهة الأهوال والشدائد ثم أخذ الله ينكل بفرعون وقومه لعلهم يذكرون

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾.

ثم أراد الله أن يهلكهم ويدمرهم وينقذ موسى وبني إسرائيل من ويلاتهم

فرسم لهم خطة حكيمة ليس فيها ثورة ولا انقلاب سياسي لأن شرائع الأنبياء وأخلاقهم تأبىٰ الغدر والمؤامرات السرية وإراقة الدماء للوصول إلى الحكم مهما كانت الغاية نبيلة

قال تعالى: **﴿ وأوحينا إلىٰ موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون * فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فاتبعوهم مشرقين فلما ترآءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * وأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾**

تلك هي الوسائل الشريفة التي تذرع بها موسى ومن آمن به من قومه ، صَبَر على الشدائد وعلى الذبح والتقتيل لا يهز ذلك إيمانهم ولا يزعزع عقيدتهم ولا يفل صبرهم وكانت الطريقة إلى نصرهم وإهلاك عدوهم هي الطريقة التي رسمها لهم ربهم وقرأناها الآن ، لا رائحة فيها للسياسة ولا لأحداث انقلاب سياسي

وهنا شيء آخر لو كان موسى يسعى لاحداث انقلاب سياسي ويسعى جاداً لاحراز مقاليد السلطة ولاقامة الدولة الإلٰهية الغاية المنشودة من رسالة أنبياء الله لكرَّ فوراً راجعاً إلى مصر لأن الفرصة الآن مواتية جداً ، فقد أهلك الله فرعون وجنوده ولم يبق إلاَّ النساء والصبيان والخدم

فلماذا إذن لم ينتهز موسى هذه الفرصة العظيمة ويقيم الدولة الإلٰهية في بلد وصفه الله بقوله **﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾** ويقيم في صحراء سيناء بلا دولة ولا

سلطان ولا حكومة إلٰهية ؟!.

إذن لا بد أن نقول إن موسى كان رسولاً كريماً عظيماً ومن أُولي العزم والقوة ، وقد أدى رسالته على أكمل الوجوه وأتمها.

وأهلك الله على يده الطاغية فرعون وجنده وأنقذ الله على يديه بني إسرائيل وكفاه ذلك شرفاً ونبلاً وكفاه ما أحرزه من نصر على فرعون وقومه

أما محمد - ﷺ - فهو رجل عقيدة من الطراز الأول ورسول هداية ، وقد صبر في سبيل هذه العقيدة على ما لا تحتمله الجبال وعُرض عليه الملك من أول أمره فرفضه ، وما آتاه الله من نصر وقيام دولة الإسلام إلاَّ جزاء صبره وتقواه وتحمله ، فهي رسالة ودعوة وثمارها لا انقلاباً سياسياً حاشاه ثم حاشاه وقد قدمنا شرح دعوته بشيء من التفصيل ولا داعي للاعادة[1]

ومما يؤخذ على هذا الاتجاه عموماً أنهم قد وضعوا قاعدة وهي إن الإسلام كُلٌّ لا يتجزأ ، وهي قاعدة عظيمة[2].لو طبقت على منهج السلف الصالح بدون غلو .

لكنك ترى القوم يخالفونها مخالفة شديدة مع الأسف وذلك أن تعلقهم الشديد بإقامة الدولة الإسلامية (ويسمون ذلك بالدعوة إلى الحاكمية) قد شغلهم عن الاهتمام بأصل الإسلام الذي هو التوحيد بأنواعه ،

ولم يدركوا إلى الآن بسبب ذلك الإنشغال أن موجبات الاهتمام

---

(١) انظر صفحة

(٢) لكن مع الأسف قد غلبوا عليها قاعدة أخرى « وهي نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » وهي عبارة واسعة وسعت كل الخلافات في الأصول والفروع مع كل الفرق المنتسبة إلى الإسلام

بالدعوة إلى التوحيد قائمة على أشدها كما هي في عهود النبوات كلها بمن فيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ أو أشد

فهل يستطيع أن ينكر ذلك عاقل منصف؟!

وهل يقول أو يعتقد مسلم واعٍ أن المسلمين اليوم مثل المسلمين في القرون المفضلة لا يستمدون عقائدهم وعباداتهم إلّا من الكتاب والسنّة

إن الدعوة إلى الحاكمية وتطبيقها أمر مهم ويهم كل مسلم يفهم الإسلام (إذا روعيت شروطها) وكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مهم وعظيم

لكننا نتسآءل هل الدعوة إلى الحاكمية تستلزم الإهمال أو التقصير في أصل أصول الإسلام؟

الجواب لا

إن حاكمية الله يجب أن تبدأ من أعظم شيء في الإسلام ألا وهو الاعتقاد في الله وفي أسماء جلاله وصفات كماله كما تعرَّف الله إلينا بها في كتابه العظيم وكما علمنا نبينا الكريم ﷺ ـ لتمتلىء قلوبنا بها نوراً وإيماناً ويقيناً وإعظاماً وإجلالاً

أيجوز في حاكمية الله ودينه أن تعطل أسماء جلاله وصفات كماله وهي أسمى وأجل وأعظم ما ضمه كتاب الله وسنة نبيه؟!!

لماذا لا نطلب من علماء المسلمين بإلحاح أن يحكموا كتاب الله وسنة نبيه في هذا الأمر الخطير؟!!

أيجوز في حاكمية الله وشرعه ونظامه أن يخالف كثير وكثير من المسلمين منهج الأنبياء في توحيد العبادة وإخلاصها لله وحده ويتخذوا مع الله أنداداً يدعونهم ويستغيثون بهم ويهتفون بهم في الشدائد ويمعنون في ذلك حتى يشركونهم في الربوبية فيعتقدون فيهم أنهم يعلمون الغيب

ويتصرفون في الكون؟! .

أليس هذا عدواناً على أعظم حقوق الله ؟! أليس هذا هو أظلم الظلم؟ فأين الدعوة إلى الحاكمية إذن وأين هي العدالة ؟!

أيجوز في حكم الله وشرعه أن نغض الطرف عن الصوفية وهي تعبث بعقائد المسلمين وعقولهم فتفسدها وتدمرها بعقيدة الحلول ووحدة الوجود ووحدة الأديان وبغير ذلك من ضلالات التصوف؟!!

أيجوز في حاكمية الله ودينه أن تشاد الألوف من القبور في معظم بلدان الإسلام ليطاف بها ويعتكف حولها وتشد إليها الرحال ويُنذر لها بالكثير من الأموال ، وتقام لها الاحتفالات ويفعل المسلمون حولها وبها ما يندي له جبين الإسلام وما يضحك من المسلمين والإسلام أعداءه من الوثنيين واليهود والنصارى والشيوعيين ؟

أيجوز في حاكمية الله أن تموت السنن وتقوم على أنقاضها البدع والخرافات والأساطير؟ .

إن هذه الضلالات والشركيات والبدع قد طَمَسَت معالم التوحيد ومعالم الإسلام عموماً

إنني أرجو من عقلاء هذا الاتجاه أن يحاولوا ـ بعد مراقبة الله في أنفسهم وفي الأمة أن يقدروا منهج الأنبياء حق قدره وأن يعطوا كل جانب من الإسلام ما يستحقه من الجهد ، وأن يضعوا نصب أعينهم قول رسول الله ﷺ « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » .

لقد كان يقال لنا إن هذه الأمور (البدع والشركيات) انتهت ودفنت ، فكشفت الأيام أنها حية باقية على أشدها ولها مدارس وحكومات تؤيدها وتحميها ولها أحبارها ورهبانها وسدنتها ، فلماذا لا نفهم المسلمين أن هذه الأعمال الجاهلية تضاد حاكمية الله؟ .

ولماذا لا ندعو أهلها إلى التحاكم إلى الله والخضوع في كل هذه المجالات لحاكمية الله؟.

فإن كان اخوتنا المهتمون بالحاكمية يدركون ويوقنون أن هؤلاء الذين يعملون هذه الأعمال ويعتقدونها مخالفون لحاكمية الله وغير خاضعين لها في هذه التصرفات فليشمروا عن ساعد الجد وليخوضوا هذا الميدان بكل قوة وجد وليضعوا فيها المناهج وليؤسسوا لها المدارس وليؤلفوا الكتب وليهزوا أعواد المنابر بالخطب البليغة والتوجيهات السديدة

وإنه في اعتقادي لو جاء إبراهيم ونوح وموسى ومحمد واخوانهم من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وجاء الصحابة أجمعون ما سلكوا إلاَّ منهجهم الذي حكاه عنهم القرآن ولمحوا من الوجود هذه المقابر المشيدة وكل مظاهر الشرك والضلال، ولقال محمد ﷺ لأصحاب الكلام والمعطلة والمتفلسفة وكل الفرق المنحرفة عن القرآن والسنة عودوا إلى القرآن والسنَّة « والله لو جاء موسى ما وسعه إلاَّ اتباعي ».

أتظنون أن هذه الأمور هينة وسهلة ﴿ **وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم** ﴾ كلا ليس الأمر كما تتوهمون أو كما يقال لكم إن إفساد علماء السوء والأحبار والرهبان وقادة البدع أشد وأخطر من إفساد الحكام وغيرهم لأن الناس يخدعون بهم فيحبونهم ويثقون بأقوالهم ومناهجهم فيتبعونهم ويضلون عن منهج الله بسببهم

تعالوا معي إلى القرآن الذي يهدي إلى التي هي أقوم والذي يعالج الأمراض والأخطار عن علم، لأنه تنزيل من عليم حكيم حميد

لقد عاصر النبي - ﷺ - اليهود وليس لهم دولة وقد ضربت عليهم الذلة والسكنة

فكم آية نزلت فيهم وفي كم موطن من القرآن ذُمُّوا وكُشِفَ عن

عوارهم وبيت مخازيهم وخبث طوياهم.

قال تعالى

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمون مِنَّا إلاَّ أن آمنَّا باللَّهِ وما أُنْزِلَ إِلَيْنَا وإنَّ أَكْثَرَكُم فَاسِقُون * قُلْ هَلْ أُنَبِّؤُكُم بِشَرّ من ذلك مثوبة عند الله مَنْ لعنه اللّه وغضب عليه وجَعَلَ مِنْهم القردة والخنازير وعبدَ الطَّاغوت أُولئِكَ شر مكاناً وأَضلُّ عن سَوَاء السَّبِيل * وَإِذَا جَاؤكُم قَالُوا آمنَّا وقَدْ دَخلُوا بالكُفْر وهم قد خَرَجُوا بِهِ واللّه أعلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمون * وَتَرَىٰ كَثِيراً مِنْهم يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ والعُدْوَانِ وأكلهم السحت لبئس مَا كَانُوا يَعْمَلُون * لَوْلاَ يَنْهَاهُم الربانيون والأحبار عَنْ قَوْلِهِم الإثم وأكلهم السحت لبئس مَا كَانُوا يَصنَعُون * وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللّه مَغْلُولة غُلَّت أَيدِيهم ولعنوا بِمَا قَالوا بَلْ يَداه مبسُوطَتَان ينفق كَيْفَ يَشَآءُ وليزيدن كثيراً منهُم مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغياناً وكُفراً وَأَلْقَينا بَيْنَهُم العدَاوة والبغضآء إلىٰ يوم القِيَامَة كُلَّما أوقدُوا ناراً للحرب أَطْفَأَها اللّهُ ويسعون فِي الأَرض فَسَاداً واللّه لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِين﴾ [المائدة: ٥٩ ـ ٦٤].

وقال في حقهم ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلاّ قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ [المائدة ١٣].

وعاصر الرسول ـ ﷺ ـ النصارى ولهم دول وملوك، دولة القياصرة في أوروبا والشام ومصر ودولة الأحباش في الحبشة وإفريقيا، فهل واجه القرآن حكامهم وملوكهم أو واجه النصارى أنفسهم وانحرافاتهم وعلى رأسهم رهبانهم وقسسهم؟!! تعالوا إلى القرآن ليخبرنا من هو الأحق بالمواجهة ومن واجه فعلاً

قال تعالى ﴿ ومن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ [المائدة ١٤]

وقال في اليهود والنصارى ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ [المائدة ١٨].

وقال تعالى

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلاَّ ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلاَّ هو سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [التوبة ٣١]

ودخل عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية فقال والله يا رسول الله ما نعبدهم فقال له « أليسوا يحلون الحرام فتحلونه ويحرمون الحلال فتحرمونه ؟!! » قال: بلى قال « فتلك عبادتهم ».

وقال في حق اليهود والنصارى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [التوبة ٣٤].

وتوفي رسول الله - ﷺ - وهو يلعن اليهود والنصارى على انحرافهم العقائدي فكان يقول « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[١]

---

(١) تقدم تخريجه ص

والآيات والأحاديث في ذمِّهم في انحرافهم العقائدي والخلقي كثيرة وكذلك الأحاديث الشريفة، ولم يذكر آية في ذم ملوك النصارى وحكامهم المعاصرين للعهد النبوي الكريم على شرهم وخبثهم

فلماذا تسير الدعوة الإسلامية في هذا الاتجاه؟ .

لأن هذا هو منهج الدعوة الصحيح ، ولأن الزعامات الدينية المنحرفة أخطر وأخطر بكثير من الزعامات السياسية المنحرفة ، لأن الزعامات الدينية تكسب ثقة الناس ومحبتهم وولاءهم وينقاد الناس لهم اختياراً وحباً فإذا كانت هذه الزعامات الدينية ضالة منحرفة انحرفت بالناس عن منهج الله وقادتهم إلى غضب الله والنار وحتى الحكام أنفسهم قد يخضعون لهذه القيادات والزعامات الدينية فهذا يهودي خاضع لزعامة دينية وذاك نصراني كذلك، وفيمن ينتمي إلى الإسلام ذاك شيعي وذاك معتزلي وذاك أشعري وذاك خارجي، وذاك صوفي وذاك وذاك

فالزعامات والقيادات الدينية المنحرفة هي التي أفسدت عقائد هذه الأمة وأخلاقها وعباداتها وثقافاتها ومزقتها شر ممزق ، فلماذا نجاملها ونهون من شأنها ومن أخطارها وهي مصدر كل بلاء؟!! فهناك التشيع والرفض وفرقها ومن أندس تحتها من زنادقة ومن ملاحدة

وهناك أئمة التصوف وطرقها الكثيرة وأفكارها الضالة من وحدة وجود ووحدة أديان وحلول وشركيات وبدع ، وضلالات لا تنتهي عند حد ، وهناك أئمة الخوارج والاعتزال والإرجاء والجبر ، وكل هذه الزعامات قد لَفَّتَ الأمة بطوفان من الفتن لا يعلم مداها إلاَّ الله وأكثر المسلمين إنما هم دمى وأشباح تحركهم هذه الأفكار كغثاء تجرفه السيول .

فمن يريد إصلاح أحوال المسلمين مخلصاً جاداً صادقاً فليسلك طريق الأنبياء ومنهجهم وعلى رأسهم خاتم النبيين وقد وضحناه مراراً

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله

وما أنا من المشركين ﴾

وأعتقد أن من ينحرف بالشباب والدعاة عن هذا المنهج لم يعرف على أحسن أحواله منهج الأنبياء ودعوتهم سواء كانت دعوته سياسية أو صوفية أو غيرها ، فلقد تركنا رسول الله على بيضاء لا يزيغ عنها إلاَّ هالك

ومن يصور للناس أن منابع الفساد هم الحكّام فقط فهو مخالف لما قرره القرآن الكريم والسنة النبوية والتأريخ الإنساني والإسلامي ومستدرك على منهج الأنبياء خصوصاً إذا وجه الدعاة إلى حصر جهودهم وصبِّها في المجال السياسي فمنابع الفساد الأساسية والأصيلة والخطيرة هي التي قررها الله على ألسنة رسله جميعاً ورسم لهم منهجاً لردمها وما عداها فهو تابع لها فليفهم الداعي إلى الله ذلك وليعتصم بحبل الله وليلزم غرز الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

هذه بعض النماذج من أفكار الاستاذ المودودي وأفكار هذا الاتجاه والتي آمن بها كثير من الناس في الشرق والغرب وأصبحت في نظرهم هي لب الإسلام وهي غايتهم النهائية التي من أجلها يكافحون وفي سبيلها يضحون ، ولقد أسهم في تقوية هذا التيار الذي أحدثه فكر الاستاذ المودودي وأمثاله أقوال بعض الكتاب الإسلاميين مثل الاستاذ عبد القادر عودة ـ رحمه الله ـ الذي أرجو أن يكون هذا منه فلتة لسان أو زلة قلم يغفرها الله

قال رحمه الله : ـ

« أحكام الإسلام شرعت للدنيا وللدين ، والأحكام التي جاء بها الإسلام على نوعين

١ ـ أحكام يراد بها إقامة الدين ، وهذه تشمل أحكام العقائد والعبادات

٢ ـ وأحكام يراد بها تنظيم الدولة والجماعة وتنظيم علاقات الأفراد

والجماعات بعضهم ببعض

وهذه تشمل أحكام المعاملات والعقوبات والأحوال الشخصية والدستورية والدولية الخ

فالإسلام يمزج بين الدين والدنيا وبين المسجد والدولة فهو دين ودولة وعبادة وقيادة ، وكما أن الدين جزء من الإسلام ، فالحكومة جزؤه الثاني بل جزؤه الأهم »[1]

ولقد أدرك عقلاء المسلمين عموماً وبعض قادة هذا الإتجاه ما آل إليه أمر شباب هذا الاتجاه من غلوٍ في الاهتمام بالسياسة أضر بالعقيدة وبالدعوة إلى الله وبالشباب أنفسهم

فقدموا إليهم النصيحة ممثلة في عصارة حياتهم وخلاصة تجاربهم وهذه كلمات من نور يسجلها الاستاذ سيد قطب في آخر حياته

١ ـ قال سيد قطب[٢] ـ رحمه الله

« وبعد مراجعة ودراسة طويلة لحركة الاخوان المسلمين ، ومقارنتها بالحركة الإسلامية الأولى للإسلام أصبح واضحاً في تفكيري ، أن الحركة اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات البشرية يوم جاء الإسلام أول مرة من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية ، والبعد عن القيم والأخلاق الإسلامية، وليس فقط البعد عن النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية ، وفي الوقت نفسه توجد معسكرات صهيونية وصليبية

---

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه (ص ٨). وقد طبعته ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ولم تنبه على ما في هذا الكلام من خطأ

(٢) جريدة المسلمين الدولية (المسلمون) السنة الأولى العدد الثالث الصادر في يوم السبت الموافق ٤ جمادى الآخرة /١٤٠٥هـ ص ٦ حلقة من سلسلة مقالات تحت عنوان (لماذا أعدموني).

استعمارية قوية تحارب كل محاولة للدعوة الإسلامية ، وتعمل على تدميرها ، عن طريق الأنظمة والأجهزة المحلية بتدبير الدسائس والتوجيهات المؤدية لهذا الغرض ، ذلك بينما الحركات الإسلامية تشغل نفسها في أحيان كثيرة بالاستغراق في الحركات السياسية المحدودة المحلية ، كمحاربة معاهدة أو إتفاقية وكمحاربة حزب أو تأليب خصم في الانتخابات عليه كما أنها تشغل نفسها بمطالبة الحكومات بتطبيق النضام الإسلامي والشريعة الإسلامية بينما المجتمعات ذاتها بجملتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة الإسلامية والغيرة عليها

وعن الأخلاق الإسلامية ، ولا بد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة تربية إسلامية صحيحة وعدم اضاعة الوقت في الأحداث السياسية الجارية وعدم محاولات فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي لأنها عرفته على حقيقته وتريد أن تحكم به إذ ان الوصول إلى تطبيق النظام الإسلامي والحكم بشريعة الله ليس هدفاً عاجلاً ، لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بعد نقل المجتمعات ذاتها أو جملة صالحة منها ذات وزن وثقل في مجرى الحياة العامة إلى فهم صحيح للعقيدة الإسلامية ، ثم للنظام الإسلامي وإلى تربية إسلامية صحيحة على الخلق الإسلامي ، مهما اقتضى ذلك من الزمن الطويل والمراحل البطيئة ».

« هذا الظرف كان يحتم عليَّ أن أبدأ مع كل شاب وأسير ببطء وحذر من ضرورة فهم العقيدة الإسلامية فهماً صحيحاً قبل البحث عن تفصيلات النظام والتشريع الإسلامي ، وضرورة عدم إنفاق الجهد في الحركات السياسية المحلية الحاضرة في البلاد الإسلامية ، للتوفر على التربية الإسلامية الصحيحة لأكبر عدد ممكن وبعد ذلك تجيء الخطوات التالية

بطبيعتها بحكم اقتناع وتربية قاعدة في المجتمع ذاته لأن المجتمعات البشرية اليوم بما فيها المجتمعات في البلاد الإسلامية قد صارت إلىٰ حالةٍ مشابهة كثيراً أو مماثلة لحالة المجتمعات الجاهلية يوم جاءها الإسلام ، فبدأ معها من العقيدة والخلق لا من الشريعة والنظام

واليوم يجب أن تبدأ الحركة والدعوة من نفس النقطة التي بدأ منها الإسلام ، وأن تسير في خطوات مشابهة مع مراعاة بعض الظروف المغايرة »[1]

رحم الله سيد قطب ـ لقد نفذ من دراسته إلى عين الحق والصواب ، ويجب على الحركات الإسلامية أن تستفيد من هذا التقرير الواعي الذي انتهى إليه سيد قطب عند آخر لحظة من حياته بعد دراسة طويلة واعية ، لقد وصل في تقريره هذا إلى عين منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

٢ ـ وقال الاستاذ : عمر التلمساني وقد هاله انهماك الشباب في الناحية السياسة وعدم الاهتمام بالنواحي الإسلامية الأخرى قال

« ولكن للأسف وأنا أكتب هذا في مطالع الثمانينات كاد عمل الشباب الذي يعمل في الحقل الإسلامي يقتصر على الناحية السياسية التي ذهبت بالجزء الأكبر من جهودهم مما كبدهم الكثير وأضاع عليهم الكثير ، وكأنه لم يعد في دعوة الله إلَّا الناحية السياسية » ثم قال مشيراً إلى الأسباب التي تدفعهم إلى الإنهماك في السياسة « لا شك أن الأحداث السياسية المتلاحقة والطرق التي عالجتها بها الحكومات المتوالية فرضت نفسها فرضاً على الصعيد المصري حتى أصبح من المتعين على الشباب المسلم أن يبدي رأيه فيما يحدث وأن يقترح العلاج ، ومن يعارض في إبداء طلبة الجامعات رأيهم فيما يعرض لبلده داخلياً وخارجياً إنما يحرمهم حقاً طبيعياً لهم » ثم قال « ولكني في نفس الوقت آخذ على طلبة الجامعات

---

(١) المصدر نفسه (ص ٦ ـ ٧).

أنهم يكادون يحصرون جهودهم واهتمامهم في الناحية السياسية ، وبأساليب لا أقرهم عليها أنهم أصبحوا لا يقيمون مؤتمراً في الجامعة أو الأزهر أو أي مكان آخر إلاَّ لغرض سياسي ، ثم يا ليتهم يكونون موضوعيين في هذه المؤتمرات وهذا ما يجب أن يفهموه ويلزموا به أنفسهم »[1]

لقد أصاب الأستاذ التلمساني في استنكاره هذا الغلو في الجانب السياسي ، ولكنه قصر في دراسة أسبابه

وإن ما ذكره لا شك أنه من الأسباب ، ولكن هناك أسباباً أهم وأقوى تأثيراً منه في عقول الشباب وعواطفهم ، ألا وهي الأفكار السياسية التي تربوا عليها من مثل أفكار الأستاذ المودودي التي ناقشناها فيما مضى من هذا البحث وهي غيض من فيض من كتاباته وكتابات غيره من قادة هذا الاتجاه

وإذا كان بعض قادة هذا الاتجاه قد أدرك ما وصل إليه الشباب من ولوغ بالسياسة وغلو فيها إلى درجة «انهم كانوا يحصرون جهودهم واهتمامهم في الناحية السياسية وبأساليب لا يقرون عليها ». كما يقول الأستاذ عمر التلمساني

فلماذا لا يعيدون النظر ـ رحمة بهذا الشباب ـ في مناهج تربيتهم وفي تلك الأفكار السياسية الخطيرة التي يجب أن يدرسوها دراسة واعيةً في ضوء الكتاب والسنة فيقر ما وافق القرآن والسنة ويترك ما لم يوافقهما .

أما سيد قطب فقد قام بدراسة واعية ووصل إلى نتيجة صحيحة وتقدم بنصيحته للأمة وشبابها ، إنه لا بد من تربية الأمة على العقيدة الصحيحة ، ولا بد من الانطلاق بها من هذه القاعدة وإننا لصيحات قيادات هذا الاتجاه المماثلة لهذا الصوت الواعي المخلص لمنتظرون ، والله نسأل للأمة الإسلامية ولدعاتها التوفيق إلى الأخذ بمنهج الأنبياء الذي فيه سعادتهم

---

(١) المهوب استاذ الجيل (ص ٩٠).

وسيادتهم

وفي الختام أقول إنني أؤمن بحاكمية الله وأن الحكم لله وحده وأؤمن بشمول هذه الحاكمية ، وأنه يجب أن يخضع لها الأفراد والجماعات والحكام والدعاة

وإن من لم يحكم بما أنزل الله في دعوته وفي عقيدته وفي دولته فأولئك هم الظالمون وهم الكافرون ، وهم الفاسقون

كما قال الله وكما فهمه السلف الصالح لا على ما فهمه المفرطون ولا المفرِّطون وأنحى باللائمة على من يحصرها في ناحية من النواحي أو يخالف منهج الأنبياء الواضح الحكيم ويبدأ بالفروع قبل الأصول وبالوسائل ويجعلها غايات ويؤخر أو يُقصر في شأن الغايات الحقيقية التي تتابع عليها جميع الأنبياء

وأمد يد الضراعة إلى الله أن يوفق المسلمين جميعاً شعوباً وحكاماً ودعاة إلى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله في جميع شؤونهم العقائدية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وأن يوحد كلمتهم ويوحد صفوفهم على الحق وأن يُعافيهم من كل الأهواء والأمراض النفسية التي مزقت صفوفهم وفرقت كلمتهم ، إن ربي لسميع الدعاء ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الفهـــرس

تصويب الأخطاء في كتاب منهج الأنبياء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
الغلاف الخارجي والداخلي	٥	السند	السنة
١٥	٨	فينزل	فنزل
٢١	١٥	يعلمه	يعلمه لهم
٢٨	١	إلى الله توحيد	إلى توحيد
٢٨	٣	من رسول	من نبي
٣٣	٩	عصون	عصوني
٥٤	١٣	صهروهم	وصهروهم
٥٤	١٣	وأتاهم	واتاهم
٦٢	١٣	حتى	حين
٦٦	١	فدعا	فدعانا
٦٨	٤ من أسفل	معنى	معين
٧٠	٧	تعبد	يعبد
٧٢	٣	استقوا	اشتقوا
٨٢	١	السطعة	السطة
٨٣	٣ حاشية	ص	ص ٦٨
٨٧	٨ حاشية	وقالوا	قالوا
٨٩	١١	أنالا	إنًا لا
٨٩	١٨	تعنّى	تَعَيَّنً
٩٣	١٩	خندق	خندف
٩٨	١٠	الأصل	الأصيل
١٠١	٢١	بماهو	تحذف
١٠٢	١٣	المكثر	الكُثُر

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٥	١	فيها	فبها
١٠٦	٢٠	تأتي	نأتي
١١٥	٤	شد	شذ
١١٥	٤	الأهم	الأصم
١١٥	١٥	البررة	البربره
١١٥	٢١	أبو علي	ابو يعلىٰ
١١٦	٧	الدعوى في	الدعوى وفي
١١٦	حاشية ٢	الاحكام السلطانية ص١٩	تجديد الدين ص ٣٤
١١٧	١٦	ويحدث	وتحدث
١٢٢	٩	الدافعة	الدامغة
١٢٨	٩	أضرب	اضرب
١٣٨	٢ من أسفل	للتوفر	لتوفر
١٤١	٨	أنحى	أنحي
١٤٣	٢ من أسفل	الرافض	الرافضي
١٤٣	٣ » »	»	»

ترتيب الصفحات (٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩) يكون هكذا (٥٤، ٥٧، ٥٨، ٥٥، ٥٦، ٥٩)

ص ١٢٠ يوضع في آخر سطر ١٦، (٢) ، وفي الحاشية يكتب م:

(٢) تجديد الدين (ص ٣٥).